سُؤَالُ الْبَرْزَخ

تأليف: نُورُ الدِّين قَوطِيط



تنبيه مهم□

هَذِهِ الرِّسَالَةُ مِلْكٌ لِكلِّ مُسْلِم

لَهُ الحَقُّ فِى نَشْرِها بِأَيَّة وَسِيلَة شاءَ وتَيسَّرَ لَهُ

كَمَا أَنَّ الحَقَّ فِى طِبَاعَتِهَا وَالاسْتِفَادَة مِنْهَا مَادِياًّ

عَلَى أَنَّهُ حَقٌ مَشْرُوطٌ بِعَدَمِ إِدْخَالِ أَدْنى تَغْيّيرٍ

عَلَى مُحْتَوَاهَا بِالزِّيَادَة أَوْ الحَذْفِ

وَكَذَلِكَ بِدَعْوَةٍ كَرِيمَةٍ بِظَهْر الغَيْبِ

1446 هجرية – 2025 إفرنجية

فِهْرَسُ الرِّسَالَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تفرّد بالبقاء، وكتب على الخلائق الفناء، هو الحي القيوم، أزلي بلا بداية، أبدي بلا نهاية، تبارك شأنه وجل جلاله. والصلاة على نبينا الأكرم، الذي نوّر الله به القلوب والبصائر، وكشف به ظلمات الجهل والباطل، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان، وسلم تسليماً كثيراً. أما بعد:

فهذه رسالة لطيفة، قصدت فيها التوقف عند قضية وجودية كبرى، وهي قضية الموت والبرزخ انطلاقاً من عقيدتنا الإسلامية، محاولاً أن أقدم عرضاً مُركزاً حول جملة من المسائل التي تتعلق بذلك، لتكون صورتها واضحة جليّة في عقول الشباب المسلم ومداركهم.

ذلك أن قضية الموت والبرزخ جزء أصيل ومرحلة مركزية من مسيرة الإنسان الخالدة، فلابد لكل إنسان من الموت، ولابد لكل إنسان أن يمر على عالم البرزخ، قبل الوصول إلى الحشر الأكبر ليعرف مصيره الأبدي في الجنة أم في النار. والعاقل يحرص على معرفة ما يكون في مستقبله قبل الوصول إليه.

وإني أرجو ــ إن شاء الله ــ أن تتحقق الغاية المنشودة من وضعها. كما أسأل الله تعالى حسن التوفيق، وأن ينفع بها كاتبها، وقارئها، وناشرها، وأن يتجاوز عما قد يكون فيها من الزلة والهفوة والغفلة. آمين

الفصل الأول:

لماذا الموت؟

كتب الله تعالى الموت على كل الكائنات، مهما طالت أعمارها وامتدت أزمانها. والإنسان خاضع لهذا القضاء الإلهي، خضوع كل المخلوقات. يقول الحق تبارك شأنه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.[1] وقال سبحانه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾.[2] وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.[3] أي كل الخلائق تموت وأن الله وحده الدائم الباقي.

إنها حقيقة ثابتة وقضاء أزلي يشمل كل إنسان: المؤمن والملحد، الموحد والمشرك، الصالح والفاسد، الظالم والمظلوم، الشجاع والجبان، الغني والفقير، لا أحد يستطيع أن يفلت من قبضة الموت، أو حتى أن يؤجله لحظة واحدة أو يقدّمه لحظة واحدة، لأن الإنسان ـــوكل حيـــ هو في الواقع ميت مع وقف التنفيذ، حتى إذا انتهى الأجل المقدَّر له في علم الله تعالى وقع هذا التنفيذ ولابد!

كم من حضارات عظيمة خلال التاريخ الطويل تلاشت وليس لها ذكر عندنا! وكم من ملوك وأباطرة بلغوا شأو المجد والأبهة، ثم ماتوا كأنهم لم يكونوا قط بين الناس! وكم من أقوام حرصوا شديد الحرص على الصحة بكل الوسائل الممكنة لتطول حياتهم، لكنهم ماتوا فجأة أو وهم في زهرة الشباب! بل كم رأى الناس مرضى يعيشون، وأصحاء يموتون، وكم رأوا شيوخاً يعيشون، وشباباً يموتون!

ولقد حاول الفلاسفة أن "يفلسفوا" قضية الموت بحسب اتجاهاتهم الفلسفية، فذهبوا في تفلسفهم مذاهب شتى تليق بنفوسهم المحرومة من أنوار الوحي، ثم ماذا كان؟ لا شيء! لقد بقي الموت قائماً بهيبته وسلطانه يضغط على الجميع، ويُخضع الجميع، ويذّكر الجميع بأنهم مخلوقات عاجزة! وبقيت آراؤهم الشاردة منقوشة في رقوم الكتب شاهدة بصدق على عجز الإنسان تجاه سر الموت!

---

1 . **العنكبوت**: 57

2 . **الرحمن**: 26

3 . **القصص**: 88

وأيضاً؛ قد حاولت كل الأديان الوضعية التي عرفتها المجتمعات البشرية أن تقدم حلولاً مقبولة لقضية الموت، فمن اعتقاد أن الأرواح خالدة بعد الموت، إلى اعتقاد أن الأرواح تنتقل إلى أجساد كائنات أخرى بحسب ما قدّمت في الحياة الدنيا، إلى اعتقاد أن الأرواح تفنى بفناء الجسد المادي!

وكذلك؛ قد حاول العلماء الماديون أن يقدموا حلاً للغز الموت، بعيداً عن كل ما قد يوحي بوجود الإله الخالق، أو بوجود الحياة بعد الموت، فلهذا ذهبوا ينفقون الأموال الطائلة، ويحشدون الجهود الهائلة لتحقيق الخلود بطريقة ما، خصوصاً بعد ثورة الذكاء الاصطناعي، والأمر بالنسبة لهم مجرد مسألة وقت لكي يحققوا الانتصار على الموت، ومن ثم يتحقق الخلود!

هذه المحاولات تكشف عن عمق قلق الموت ومشكلته بالنسبة للإنسان، وذلك يرجع إلى:

✓ **أولاً**: **العجز عن التغلب على الموت**. يواجه الإنسان الكثير من التحديات والمشاكل والصعاب في حياته، تسبب له الكثير من القلق، والتوتر، والانزعاج، والإحباط. لكن، مع ذلك يظل دائماً هناك أمل بالنسبة له في أن تتغير الأحوال، وتتلاشى العقبات، أما بالنسبة للموت، فلا يوجد أدنى أمل أو رجاء في عدم حدوثه، بل اليقين الراسخ عند كل إنسان هو أن الموت آت لا محالة!

✓ **ثانياً**: **الجهل المطلق بزمان وقوع الموت، ومكانه، وكيفيته**. يستطيع الإنسان أن يتوقع الكثير من الأحداث المستقبلية، إما بقياس الأمور بعضها على بعض، وإما بالاستعانة ببعض العلوم والأدوات، ومن ثم، يمكنه إما تفادي ذلك أو على الأقل تقليل تأثير آثار حدوثه عليه. لكن، بالنسبة للموت، فلا يوجد إنسان يستطيع أن يتوقع زمانه أو مكانه أو كيفية وقوعه، فلا علوم تنفع ولا أدوات تنجع!

✓ **ثالثاً**: **استحالة معرفة ماذا يكون بعد لحظة الموت النهائي**. يمكن للإنسان أن يخوض الكثير من التجارب، ورغم جهله بالتفاصيل والجزئيات، لكنه يستطيع توقع النتائج بشكل عام، لأنه يقيس ما قد يحدث حتى في أسوأ الاحتمالات على نتائج سابقة حدثت معه أو مع غيره. أما بالنسبة للموت، فالأمر مختلف، لأنه ليس تجربة يمكن خوضها والخروج منها لكي يستوعب ماذا حدث ويخبر به الآخرين.

لقد كتب أبو حامد الغزالي في مقدمة كتاب ذكر الموت من جملة كتب إحياء علوم الدين يبين عجز البشر أمام الموت، يقول: «الحمد لله الذى قصم بالموت رقاب الجبابرة، وكسر به ظهور الأكاسرة، وقصر به آمال القياصرة، الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة، حتى جاءهم الوعد الحق فأرداهم في الحافرة، فنُقلوا من القصور إلى القبور، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحود، ومن ملاعبة الجواري والغلمان إلى مقاساة الهوام

والديدان، ومن التنعم بالطعام والشراب إلى التمرغ في التراب، ومن أنس العشرة إلى وحشة الوحدة، ومن المضجع الوثير إلى المصرع الوبيل، فانظر هل وجدوا من الموت حصناً وعزاً، أو اتخذوا من دونه حجاباً وحرزاً؟! وانظر هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً؟! فسبحان من انفرد بالقهر والاستيلاء، واستأثر باستحقاق البقاء، وأذل أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء، ثم جعل الموت مخلصاً للأتقياء، وموعداً في حقهم للقاء، وجعل القبر سجناً للأشقياء وحبساً ضيقاً عليهم إلى يوم الفصل والقضاء». [1]

أما القرآن الكريم؛ فيصوّر العجز المطلق للبشر عن منع حدوث الموت إذا انتهى أجل الإنسان، أو إعادة الحياة لشخص ميّت تصويراً بليغاً، فيقول الله سبحانه: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ. وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ. وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ. فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ. تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. [2] أي إذا كنتم لا تُبعثون بعد الموت ولا تحاسبون، إذن فأمسكوا هذه الروح عن الخروج من جسدها إذا حضر أجلها، أو أعيدوها إليه إذا خرجت ليستمر صاحبها في الحياة بلا نهاية!

وعلى كل حال، فجواب سؤال "لماذا يموت الإنسان؟"، يعتمد على طبيعة الرؤية الكونية التي يؤمن بها المجيب أو الباحث. ولهذا من الطبيعي أن تكون هناك فروق هائلة بين جواب من يؤمن بأنه كائن مقدس، خلقه إله عظيم لغاية شريفة، وبعد الموت يكون لقاؤه به، لينال جزاءه وثوابه وفق تلك الغاية. وبين من يؤمن بأنه كائن حقير لا يعدو أنه يكون كأية حشرة تافهة، وُجد هنا بمحض الصدفة، وحياته وكل شيء من حوله ليس إلا ضربة حظ عمياء، لا أقل ولا أكثر!

بالنسبة للمسلم؛ فإن الله تعالى قد كتب الموت على الإنسان لأنه سبحانه لم يخلقه للبقاء في الدنيا، بل للخلود والأبدية، وقد أدخله تعالى إلى عالم الدنيا أولاً إعداداً له لذلك العالم الأبدي، فيكون مصيره هناك مترتّباً على موقفه في الدنيا من ربه سبحانه، يؤمن به أم يكفر به؟ يوحّده أم يشرك به؟ يطيعه أم يعصيه؟ قال سبحانه: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾. [3]

ولهذا صرّح سبحانه في القرآن بنفي العبث عن خلقه للإنسان، فقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾. [4] كما صرّح برجعة كل إنسان إليه: ﴿هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. [5] وقال

---

1 . **إحياء علوم الدين**. ج 9 ص 309، دار المنهاج، ط 1، 1432-2011

2 . **الواقعة**: 83

3 . **الأنبياء**: 35

4 . **المؤمنون**: 115

5 . **يونس**: 56

تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.[1]

إذن؛ فموت الإنسان وثيق الصلة بالغاية التي خلقه الله تعالى لها. ولهذا؛ فكل إنسان له أجل معلوم كما شاء الله، لا يتقدم ولا يتأخر، فلا الحرص والجبن يزيد في العمر، ولا الشجاعة والإقدام ينقص منه، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ﴾.[2] وقال تبارك وتعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.[3]

هذا هو التصور الإسلامي لسؤال لماذا الموت؟ وكما ترى، فإن هذا الجواب يتفق مع طبيعة الرؤية الإسلامية للإنسان، سواء من حيث أصله، أو من حيث الغاية من وجوده، أو من حيث ما ينتظره بعد أن يغادر هذا العالم الدنيوي إلى مصيره المحتوم.

أما إذا جئنا إلى جواب هذا السؤال في الرؤية المادية الإلحادية، فسنجده يختلف اختلافاً جذرياً عن الجواب الإسلامي، لكنه يتفق تماماً مع طبيعة الرؤية المادية للإنسان، سواء من حيث أصله، أو من حيث دوره في الحياة، أو من حيث مصيره بعد الموت. وهذا ما يعني أن عجز الرؤية المادية الإلحادية عن تقديم صورة واضحة المعالم للموت، طبيعي جداً ومبرر جداً، فأن تقدم تصورك عن الموت وما بعد الموت، يجب أولاً أن تمتلك رؤية واضحة عن أسئلة وجودية كبرى، ومن أبرزها: أصل الإنسان؟ لماذا هو هنا؟ لماذا العالم موجود؟ وهل هناك غاية في الحياة؟ فالذي لا يدري من أين أتى، كيف يمكن أن يدري إلى أين هو ذاهب؟ والذي لا يدري لماذا هو موجود هنا، كيف يمكن أن يدري مصيره بعد أن يغادر هذا العالم؟

لقد صرّح بعض زعماء الإلحاد المعاصر، وهو "ويل بروفاين" البروفيسور في تاريخ علم الأحياء، بمثل هذه الحقيقة، فقال: «لا آلهة، لا حياة بعد الموت، لا قاعدة حقيقية للأخلاق، لا معنى نهائي للحياة، ولا إرادة حرة للإنسان، إننا مرتبطون جميعاً على نحو عميق بالمنظور التطوري، أنت هنا اليوم وسترحل في الغد، وهذا كل ما في الأمر»،[4] قلت: بهذا الاعتبار، يمكن القول بأن الملحد ميّت معنوياً قبل أن يموت مادياً، لأنه يمارس حياته بما فيها من طموحات ونشاطات على أساس أنها مسرحية هزلية وقصة عبثية! ولهذا اعتبر

---

1 . **هود**: 7

2 . **آل عمران**: 145

3 . **يونس**: 49

4 . **ميليشيا الإلحاد**: عبد الله العجري، ص 175، مركز تكوين، ط 2/ 1435-2014

القرآن الكفر موتاً: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.[1] ميتاً، أي كان في الضلالة والكفر والانحراف، ثم أسلم وآمن، فانتقل بذلك من الظلمات إلى النور، ومن الموت المعنوي إلى الحياة العقلية والقلبية.

إذن؛ فالإسلام يقدم للمسلم مقدرة تفسيرية عالية للموت. ومن هنا، فالمسلم لا ينظر إلى الموت بمنظار أنه جزء من دورة الحياة، يحدث لمرض معين، أو حادثة سير، أو عملية قتل، أو تقدم في السن، أو توقف نشاط أجهزة الجسم، كالتنفس أو الدماغ، وغير هذا مما يدخل في باب أسباب الموت! وإنما ينظر إليه بمنظار أنه ضرورة حتمية من جهة تعلقه بالغاية من وجود الإنسان ابتداء.

أما الملحد، فالإلحاد يقدم له مقدرة تفسيرية ضعيفة للموت. فالملحد ينظر إلى الموت بمنظار مادي صرف، فبالنسبة له فهو مجرد جزء طبيعي من دورة الحياة، فقد يحدث بسبب أمراض صحية، أو عوامل وراثية، أو عوامل بيئية، أو بسبب الحروب والمجاعات، وفي النهاية هو صدفة مزعجة لا يمكن تجاوزها والتحرر من ضغطها وحقيقتها![2] وكما ترى، فإن كل هذا في الحقيقة ليس جواباً لسؤال: لماذا الموت؟

لكن؛ لماذا كل هذا الاهتمام بالموت، بغض النظر عن أديان الناس ومستواهم، أفراداً ومجتمعات، من الحضارة والعلوم والثقافة؟! يمكن أن نقدم الجواب على النحو التالي:

✓ **أولاً**؛ الإنسان لا يستطيع تجاوز حقيقة الموت، سواء وهو في حضيض البداوة، أو وهو في يفاع الحضارة، وسواء وهو مغمور في الجهالة، أو وهو مشهور في المعرفة، لأنه يدرك معنى الموت إدراكاً مباشراً فيما حوله من الكائنات، بدءاً بالنبات والأزاهير، ومروراً بالحيوان والطيور، وانتهاء بأفراد الأهل والمجتمع، كما أنه يشهد ذلك في خضوع الجبابرة له، وخنوع الطواغيت لسلطانه، رغم ما لديهم من القوة والجبروت، وما فيهم من العناد والتمرد والظلم والطغيان، وما يحيط بهم من الأطباء والخبراء والاختصاصيين. وكل هذا يؤكد له بأن الموت أحد الثوابت المطلقة التي تشمل كل الكائنات والمخلوقات في كل زمان ومكان بلا محاباة لأحد. ومن ثم فلا مخلوق، صغر أم كبر، يستطيع الإفلات من قبضته. صحيح أن الإنسان قد يبعد خاطرة الموت عن

---

1 . **الأنعام**: 122

2 , سبق أن نبهت على أن الماديين صاروا يعتقدون إمكانية تخليد الإنسان وأن المسألة مجرد وقت فقط للوصول إلى ذلك. انظر مثلاً مقال: "بعيداً عن عوالم الآلهة.. كيف أصبح الخلود علمانيا؟" على هذا الرابط: https://n9.cl/wo0ke

دائرة تفكيره إلى حد ما بالانغماس في الشهوات أو باللهاث وراء سراب الطموحات والمجد الدنيوي، لكنه لا يفتأ يفكر في الموت، متى يكون؟ وكيف سيأتي؟ وأين سيقع؟ وماذا سيكون بعده؟

✓ **ثانياً**؛ الإنسان لابد أن تتأثر حياته كلها، بما فيها من أفكار ورؤى، وأحلام وأهداف، وعلاقات ونشاطات، بطبيعة نظرته للموت، سواء اعتقد بأن الموت نهاية الرحلة، أم اعتقد أنه بوابة حياة أخرى، أو ما شاء من المعتقدات. فلو قارنا بين المسلم والملحد سنجد أن الفرق بينهما في طريقة التفكير ونمط الحياة ونسق القيم له ارتباط وثيق بطبيعة نظرة كلٍّ منهما للموت وما بعده. فالملحد يعتقد بأن الموت عودة إلى العدم، وهذا بالنسبة له _على الأقل هذا ما تفرضه أسس الرؤية الإلحادية_ مبرر كاف ليخوض في الشهوات والمصالح الشخصية إلى أقصى حد ممكن، دونما اعتبار لأي شيء يمكن أن يحد من لذاته وشهواته. وأما المسلم فهو يعتقد بأن الموت بوابة وممر إلى حياة أخرى، فيها الحساب والجزاء، ثم يتقرر مصيره النهائي الأبدي وفق ذلك، وهذا بالنسبة له _على الأقل هذا ما تفرضه أسس الرؤية الإيمانية_ مبرر كاف ليعش حياته بمختلف جوانبها وعلاقاتها وطموحاته في مستوى الانضباط والمسؤولية والقيم.

فإذا تأملت هذين المعنيين، بالإضافة إلى ما ذكرناه سابقاً حول مصادر قلق الموت، تبين لك سر سلطان الموت على وعي الإنسان وشعوره، على رغم من اختلاف أصناف البشر في تلقي حقيقة الموت، والتعاطي معها! والله تعالى أعلى وأعلم

الفصل الثاني:

الموت في العقيدة الإسلامية

نستطيع أن نلخص حقيقة الموت في العقيدة الإسلامية في المعالم التالية:

✓ **أولاً**؛ تقرر العقيدة الإسلامية بأن الموت حقيقة من حقائق الوجود الإنساني، فكل إنسان فانٍ، ومن ثم، فالخلود في عالم الدنيا مستحيل استحالة مطلقة. يقول الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾.[1] ويقول جل جلاله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾.[2] ويقول سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.[3] ويقول تعالى وتقدس: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.[4] ويقول تبارك شأنه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.[5] وغير هذا من الآيات التي تقرر بأن الإنسان لابد له من الموت، ولابد أن يغادر هذه الحياة الدنيا، ولابد أن ينتقل عبر بوابة الموت إلى عالم آخر، يتقرر فيه مصيره الأبدي.

✓ **ثانياً**؛ تقرر العقيدة الإسلامية بأن الموت لا يأتي الناس اعتباطاً، بل كل فرد له أجل مسمى في هذه الحياة، قد يطول وقد يقصر، فإذا بلغ الحد الزمني المقدر له نزل به الموت بلا تقدم ولا تأخر. يقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾.[6] ويقول جل جلاله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًاۗ﴾.[7] ويقول تعالى وتقدس: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾.[8] وكذلك مكان الموت، فكل إنسان قد كُتب مكان موته ولا يعلم ذلك إلا الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا

---

1 . **الرحمن**: 26
2 . **العنكبوت**: 57
3 . **القصص**: 88
4 . **السجدة**: 11
5 . **التغابن**: 3
6 . **الأنعام**: 2
7 . **آل عمران**: 145
8 . **الأنعام**: 61

تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾.[1] وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَبارَكَ وتعالى إذا أرادَ قَبْضَ رُوحِ عَبدٍ بأرضٍ جَعلَ لَه فيها –أو قال: بها– حاجةً﴾.[2] إلى غير هذا من مثل هذه النصوص.

✓ **ثالثاً:** تقرر العقيدة الإسلامية بأن الموت عبارة عن انفصال الروح عن الجسد انفصالاً كاملاً، وهذا تبع للحقيقة التي تؤكد عليها وهي أن الإنسان روح وجسد. يقول الله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾.[3] وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن لحظة الموت، وكيف أن الملائكة تأتي لقبض روح العبد، فقال عن الرجل المسلم الصالح: ﴿فيقولُ مَلَكُ الموتِ: أيَّتُها النَّفْسُ الطَّيِّبةُ، اخْرُجي إلى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوانٍ. قالَ: فَتَخْرُجُ تَسيلُ كما تَسيلُ القَطْرَةُ مِنَ السِّقاءِ﴾، وعن الرجل الكافر قال: ﴿فيقولُ ملَكُ الموتِ: اخْرُجي أيَّتُها النَّفْسُ الخبيثةُ إلى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وغَضَبٍ. قالَ: فتَفَرَّقُ في جَسدِهِ، فينقَطِعُ معها العُروقُ والعَصَبُ كما يُستْخرجُ الصُّوفُ الْمَبْلولُ بالسَّفودِ ذي الشُّعَبِ﴾.[4] ولهذا يستحيل أن يعود أحد إلى الحياة الدنيا بعد الموت، أي بعد أن ينفصل روحه عن جسده انفصالاً كاملاً.

✓ **رابعاً:** تقرر العقيدة الإسلامية بأن الموت ليس فناء وعودة إلى العدم، كما تعتقد الرؤية الإلحادية المادية، بل هو بوابة إلى الحياة الأبدية الشاملة المطلقة. يقول الله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.[5] ويقول سبحانه: ﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.[6] فمثل هذه الآيات بيان وتوكيد على أن الموت ليس نهاية الرحلة، بل هناك مصير يصير إليه كل فرد بعد الموت، وهناك رجعة يرجعها كل فرد إلى خالقه. وهذا المعنى يتأسس على حقيقة مركزية في الاعتقاد الإسلامي، وهي أن الإنسان لم يخلق عبثاً في هذه الدنيا، بل لغاية عظيمة، وعليها سيحاسب بعد الموت، وعليها يتقرر مصيره الأبدي، إما في الجنة أو في النار. ولهذا فإن هذا الاعتقاد يساعد المسلم على أن ينظر للموت لا على أنه نهاية مسيرة إنجازاته وطموحاته، بل بالحري أنه استئناف لها وقطف لما تحقق له منها، لأن الموت بوابة إلى حياة جديدة أبدية، يمارس فيها المسلم قوى روحه وعقله كاملة بلا حدود ولا قيود.

---

1 . **لقمان:** 34
2 . **سنن الترمذي**
3 . **الأنعام:** 93
4 . **المستدرك على الصحيحين**
5 . **التغابن:** 3
6 . **يونس:** 26

✓ **خامساً**؛ تقرر العقيدة الإسلامية بأن الموت لا يخرج عن قضاء الحكمة الإلهية، فهو مثله مثل الحياة، ومثل أي شيء آخر، خاضع لحكمة المولى عز وجل. يقول الحق تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾.[1] فهذه الآية بيان أن للموت حكمة عظيمة، كما أن للحياة حكمة جليلة، وهما معاً مرتبطان بغاية وجود الإنسان في الدنيا، وهي الابتلاء بالتكليف والمسؤولية. ويقول سبحانه: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.[2] فهذه الآية بيان أن الموت جزء من سلسلة محطات مقدّرة بحكمة ودقة، فالإنسان لم يكن شيئاً، ثم خُلق، ثم سيموت، ثم يرجع إلى ربه ليحاسبه ويجازيه. وهذا ما يجعل المسلم يطمئن لقدر الموت، لأنه ينظر إليه نظرة شمولية ضمن دائرة أوسع من النظرة الضيقة التي تفصل الموت عما قبله وعما بعده.

فهذه العناصر الخمسة هي التي تشكل نظرة العقيدة الإسلامية للموت.

وقد قرر أهل العلم هذه المعاني، قال أبو العباس المقدسي: «معنى الموت انقطاع تصرف الروح عن البدن، وخروج البدن عن أن يكون آلة لها، وسلب الإنسان عن أمواله وأهله بإزعاجه إلى عالم آخر لا يناسب هذا العالم. فإن كان له بالدنيا شيء يفرح به، ويستريح إليه، عظمت حسرته عليه بعد الموت، وإن كان لا يفرح إلا بذكر الله تعالى والأنس به، عظم نعيمه وتمت سعادته إذا خُلي بينه وبين محبوبه، وقُطعت عنه العوائق والشواغل؛ لأن جميع شواغل الدنيا شاغلة عن ذكر الله تعالى. وينكشف للميت بالموت ما لم يكن مكشوفاً في حال الحياة، كما ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفاً له عند النوم».[3]

وقال السيوطي: «قال العلماء: الموت ليس بعدم محض ولا فناء صرف، وإنما انقطاع تعلق الروح بالبدن، ومفارقة وحيلولة بينهما، وتبدل حال، وانتقال من دار إلى دار. وأخرج أبو الشيخ في تفسيره، وأبو نعيم عن بلال بن سعد أنه قال في وعظه: يا أهل الخلود، ويا أهل البقاء: إنكم لم تُخلقوا للفناء، وإنما خُلقتم للخلود والأبد، وإنما تُنقلون من دار إلى دار. وأخرج الطبراني في الكبير، والحاكم في المستدرك عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: إنما خُلقتم للأبد والبقاء، ولكنكم تُنقلون من دار إلى دار».[4]

---

1 . **الملك**: 2

2 . **البقرة**: 28

3 . **مختصر منهاج القاصدين**. ص 397، مكتبة دار البيان، دمشق، 1398-1978

4 . **شرح الصدور بشرح حال أهل القبور**، ص 67، دار المنهاج، ط 1/ 1432-2011

والمسلم حين يفكر في الموت بهذا المنطق، وينظر إليه من هذه الزاوية، فلا شك أن تعامله معه يكون مختلفاً، واستقباله له يكون مختلفاً. إنه لن يتعامل معه على أساس أنه نهاية وعودة إلى الفناء، بل على أساس أنه بداية الحياة الحقيقية. وبهذا سيكون بمنأى عن الوقوع في قبضة الرعب النفسي الذي يزلزل النفوس المنحرفة والعقول المطموسة حين يخطر بها خاطر الموت، والخروج من هذه الحياة!

وأيضاً، لن يتعامل بفكرة عبثية الحياة، وعبثية الوجود، وهي الفكرة التي تجعل المؤمن بها ممن يسمون أنفسهم بالملحدين واللادينيين والماديين، يرفع شعار "بما أنه لا توجد حياة بعد الموت، إذن كل شيء جائز في هذه الحياة"، وبهذا ينطلقون بهوس وجنون نحو اللذات والشهوات، بلا رادع ولا مانع، لأنهم يعتقدون أن حياتهم فرصة وحيدة، إذا لم يستغلوها في ذلك فلن تعوض أبداً!

ومن هنا تكتسب حياة المسلم كلها، بما فيها من أفكار وتصورات، وأحلام ورغبات، وعلاقات ونشاطات، وأهداف وغايات، تكتسب قيمتها، ومعناها، وقدسيتها، ومسؤوليتها. كما أنه لا يجد في نفسه ذلك التوتر والقلق الذي يجده من لا يؤمن بالله واليوم الآخر الإيمان الصحيح، لأنه يرى في الموت وسيلة للقاء ربه عز وجل، ولقاء نبيه الكريم والصالحين، فيكون بهذا الاعتبار شوقاً منشوداً.

نخلص من هذا إلى مسألة مهمة، وهي: كيف عالجت العقيدة الإسلامية قلق الموت؟ والجواب:

✓ **أولاً**؛ بيّنت العقيدة الإسلامية أن الموت قدر من أقدار الله تعالى الحتمية وسنة من السنن الكونية العامة، ولهذا لا شيء يمكن أن يفلت منه.

✓ **ثانياً**؛ بيّنت العقيدة الإسلامية أن الموت جزء من منظومة الحكمة الإلهية الكبرى في الوجود، فلله تعالى مقاصد وحِكَم تناسب كمال علمه وعدله ورحمته وفضله.

✓ **ثالثاً**؛ بيّنت العقيدة الإسلامية ما يتعلق بالموت وما بعده منذ لحظة الاحتضار، إلى خروج الروح، إلى ما يحدث في القبر، ثم لاحقاً الحشر، حتى لا يظل الأمر لغزاً غامضاً.

✓ **رابعاً**؛ عالجت العقيدة الإسلامية الاهتمام بمن يتركهم الميّت بعد موته كأهله وأطفاله، بأن قدرهم قد فُرِغ منه، ولابد أن يتحقق قدرهم، والله يتولى الصالحين.

✓ **خامساً**؛ عالجت العقيدة الإسلامية التأسف على فوات الملذات الدنيوية بالموت، بالكشف عن أن القبر قد يكون روضة من رياض الجنة، فيتنّعم فيه المؤمن قبل الدخول النهائي للجنة.

✓ **سادساً**؛ عالجت العقيدة الإسلامية القلق من القدوم على الرب تعالى بأنه سبحانه يقضي لعبده ما فيه الخير، فإما أن يستقبله بفضله وهذا خير، أو يستقبله بعدله فيكون ذلك تهذيباً له وهذا خير.

✓ **سابعاً**؛ فتحت العقيدة الإسلامية المجال للمسلم لكسب مزيد من الحسنات بعد موته: بأن يترك علماً نافعاً أو ولداً صالحاً يدعو له أو وقفاً خيريّاً أو دعاء الأحبة وكتابة ثواب أعمال يقومون بها له.

✓ **ثامناً**؛ وضحت العقيدة الإسلامية أن إساءة الظن بالله تعالى، واليأس من رحمته من كبائر الذنوب، ولهذا فقد أمرت بحسن الظن بالله، والرجاء في رحمته والطمع في فضله، لأنه على ما يشاء قدير.

وهنا قد يسأل سائل عن قول أم المؤمنين عائشة وغيرها من الصحابة رضي الله عنهم بعد سماعهم النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ﴿مَنْ أحبَّ لقاءَ اللهِ أحبَّ اللهُ لقاءَهُ، ومَنْ أبغضَ لقاءَ اللهِ أبغضَ اللهُ لقاءَهُ﴾. فقالوا: "يا رسول الله، كلنا يكره الموت!" أقول: هذا القول منهم رضي الله عنهم إنما نظروا فيه إلى الغريزة البشرية في حب البقاء، وهي غريزة أصيلة، ولولا وجودها لفنيت البشرية في مهدها.

ولهذا صحح لهم صلى الله عليه وسلم هذا المعنى، فقال: ﴿لا، ولكنَّ المؤمنَ إذا حُضِر فبُشِّر بما أمامه أحَبَّ لقاءَ اللهِ وأحَبَّ اللهُ لقاءَه، وإنَّ الكافرَ إذا حُضِرَ فبُشِّر بما أمامَه كرِه لقاءَ اللهِ وكرِه اللهُ لقاءَه﴾.[1] وهذا الأمر يمكن تمثيله بالمرض، فالإنسان بطبعه يكره المرض لما فيه من الإزعاج والوهن والألم، لكن بالنسبة للمؤمن إذا نزل به المرض يتعامل معه بمنطق آخر، وهو اعتباره فرصة لتكفير السيئات وزيادة الحسنات ورفعة الدرجات، فهو يكره المرض بطبعه البشري، ويحبه بطبعه الإيماني. ولهذا كان جماعات من السلف يحبون ويختارون البلاء، كالمرض، والفقر، وموت الأبناء، وغير ذلك، رغم أن هذا كله مما يُكره بالطبع.

وإذا جئنا إلى الملحد؛ فنجده يعزي نفسه عندما يلم به خاطر الموت، بأنه صدفة مزعجة في هذا العالم، كما أنه جزء من دورة الحياة، ولهذا، فالموت مجرد توقف نشاط الجسم، وبهذا التوقف يتلاشى كل شيء في الميّت: الأفكار، والمشاعر، والذكريات، والأحلام! ثم يزيد جرعة العزاء لنفسه بالقول: العلم لم يثبت أي شيء بعد الموت، ولهذا لا يوجد شيء بعد الموت كما تخبرنا خرافات الأديان!

قلت: لكن الملحد لم يخبرنا عن دليله بأنه لا يوجد شيء بعد الموت، فالموت تجربة شخصية، ولم يمت أحد، ثم عاد ليخبر أنه لا يوجد شيء بعد الموت! من أين جاء هذا الإيمان القطعي للملحد بعدم وجود أي

---

1 . **صحيح ابن حبان**

شيء بعد الموت، ولا يوجد عنده أدنى دليل تجريبي يمكن اختباره ورصد نتائجه؟! فالأمر كما ترى، مجرد إيمان أعمى من الملحد، وعزاء نفسي للهروب من التوقف عند الأبعاد الفلسفية للموت، لأن هذا التوقف يسبب للملحد الواعي الحيرة والصدمة، إذ سؤل لماذا؟ يعني ببساطة الدخول إلى عالم المعنى والقيمة والغاية، أي هناك قصد وحكمة وغاية من وجود الحياة والعالم والإنسان.

أما قوله بأن العلم لم يثبت أي شيء.. فهذه مجرد كوميديا إلحادية:

✓ **أولاً**. ماذا لو أثبت العلم التجريبي بعد مئة عام أنه توجد حياة بعد الموت؟ فهذا ممكن، ولا يستطيع الملحد أن يقول بأن هذا مستحيل، وإذن لو فرضنا هذا الاحتمال، فإن الملحد الذي مات بلا إيمان بوجود حياة بعد الموت سيكون قد وقع في مشكلة كبيرة جدا لا توجد لديه فرصة لتصحيحها.

✓ **ثانياً**. العلم التجريبي _باعتراف الملحد_ نطاق عمله هو عالم الماديات التي يمكن رصدها ومراقبتها وتكرار تجربتها، لكن ما بعد لحظة الموت لا يدخل في هذا النطاق، إذن لا يمكن للعلم التجريبي أن يتعامل معه، إذن لا معنى لإحضار العلم التجريبي ليقول كلمته حول ما بعد الموت.

هنا تتجلى إحدى مظاهر مأساة الملحد!

الفصل الثالث:

الاستعداد للموت

وإذ كان الأمر كما ذكرنا في الفصل السابق؛ فإن الواجب على العاقل اللبيب أن يُذكّر نفسه دائماً وباستمرار بأن الدنيا دار ممر، وليست دار مقر، وبأن نهاية أجله في هذه الدنيا تدخل في الغيب، ولذلك فحق عليه ــإذا نصح لنفسهــ أن يعيش على أساس أنه مجرد عابر سبيل في هذا العالم، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿كُنْ في الدُّنيا كأنَّك غريبٌ أو كعابرِ سبيلٍ﴾.[1]

ولقد جاء الأمر النبوي الصريح بكثرة ذكر الموت، فقال صلى الله عليه وسلم: ﴿أكثِرُوا ذكرَ هادِمِ اللذَّاتِ﴾.[2] وهادم اللذات هو الموت، فهو صلى الله عليه وسلم يشير بهذا الحديث إلى أن انغماس العبد في طلب اللذات وتوفير الشهوات والاستمتاع بها يحدث على قلبه غاشية عظيمة تحول بينه وبين النظر إلى الآخرة، وتذكر فناء الدنيا، وسرعة انتهاء العمر فيها، ومن ثم ينسى حقيقة الغاية من وجوده وما ينتظره بعد الموت، فكان الإكثار من ذكر الموت وسيلة فعّالة في تخفيف ضغط الظروف، والحيلولة دون الاسترسال مع الرغبات النفسية والغرائز الطبيعية.

قال الغزالي في فضيلة ذكر الموت: «سبب هذه الفضيلة كلها، أن ذكر الموت يوجب التجافي عن دار الغرور، ويتقاضى الاستعداد للآخرة، والغفلة عن الموت تدعو إلى الانهماك في شهوات الدنيا».[3] فذكر الموت ــإذنــ يعمل منبهاً للعاقل وحاجزاً عن الانغماس في الباطل. قال إبراهيم التيمي: «شيئان قطعا عني لذاذة الدنيا: ذكر الموت، والوقوف بين يدي الله تعالى». وقال الحسن البصري: «ما رأيت عاقلاً قط إلا أصبته من الموت حذراً وعليه حزيناً». وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير: «إِنَّ هَذَا الْمَوْتَ قَدْ نَغَّصَ عَلَى

---

1 . **صحيح البخاري**

2 . **سنن الترمذي**

3 . **إحياء علوم الدين**. ج 9 ص 316

أَهْلِ النَّعِيمِ نَعِيمَهُمْ، فَاطْلُبُوا نَعِيمًا لَا مَوْتَ فِيهِ». وقال عمر بن عبد العزيز لعنبسة: «أكثر ذكر الموت؛ فإن كنت واسع العيش ضيقه عليك، وإن كنت ضيق العيش وسعه عليك».

وقال ابن رجب: «الواجب على العبد الاستعداد للموت قبل نزوله بالأعمال الصالحة والمبادرة إلى ذلك؛ فإنه لا يدري المرء متى تنزل به هذه الشدة من ليل أو نهار. فمن أطاع الله واتقاه وحفظ حدوده في حياته، تولاه الله عند وفاته، وتوفاه على الإيمان وثبته بالقول الثابت في القبر عند سؤال الملكين، ودفع عنه عذاب القبر، وآنس وحشته في تلك الوحدة والظلمة».[1]

وأيضاً؛ فذكر الموت مفيد جداً لما يقدمه للمسلم من العزاء والسلوان على ما يجري عليه من المنغصات والابتلاءات والحرمان وفقدان الأحبة، وغير ذلك، فإن من عرف أن الأمر مهما طال فإن النهاية هي الموت، لا شك أنه يسلو ويتعزى ويصبر، خصوصاً إذا استحضر حقيقة أن الدنيا لم تستقم لأحد، ولم تصف لأحد، ولهذا قال بعض السلف: «من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها».

وما من شك في أن المرء إذا عاش على هذا الأساس، فإنه سيكون حريصاً على الاستعداد للانتقال إلى عالمه الحقيقي في الآخرة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿اغتَنِمْ خَمسًا قَبْلَ خَمسٍ: شَبابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وغِناكَ قَبْلَ فَقرِكَ، وفَراغَكَ قَبْلَ شُغُلِكَ، وحَياتَكَ قَبلَ مَوتِكَ﴾.[2] وقال صلى الله عليه وسلم: ﴿نِعْمَتانِ مَغبونٌ فيهما كثيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ والفَراغُ﴾.[3]

وقال الحق تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.[4] وقال جل مجده: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾.[5] وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ. وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ. وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.[6]

---

1 . **نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس**. ضمن مجموع رسائل ابن رجب. ج 3 ص 118، دار الفاروق الحديثة، ط 2، 1424-2003

2 . **المستدرك على الصحيحين**

3 . **صحيح البخاري**

4 . **الحشر**: 18

5 . **المؤمنون**: 99

6 . **المنافقون**: 9-11

والعبد بقدر ما يكون لديه من هذا الوعي والبصيرة، ومن هذا الحرص والاغتنام، تكتسب حياته القيمة والمعنى والغاية. فشتّان بين إنسان يؤمن بأن وجوده في هذه الحياة مؤقت ومحدود، وأنه لابد أن ينتقل يوماً إلى حياة أخرى بعد الموت، يلقى فيها جزاءه وحسابه على ما قدّم من التوحيد والإيمان أو الكفر والشرك، ومن الأعمال الصالحة أو المعاصي الموبقة، شتّان بين هذا، وبين إنسان منكر لوجود حياة أخرى بعد الموت، معتقداً أن الأمر كله مجرد أرحام تدفع وأرض تبلع، وأن الموت نهاية المطاف لمسرحية الحياة الهزلية! فالأول يعيش في تفكيره ومشاعره ونشاطاته بمبدأ المسؤولية، والثاني يعيش في ذلك كله بمبدأ كل شيء جائز ما دام يحقق لي لذاتي ويجلب لي منفعتي ويوافق مصلحتي!

ويكفي دليلاً على هذا المعنى، إلقاء نظرة على المجتمعات الجاهلية المعاصرة، خصوصاً في أوروبا وأمريكا وغيرها من الدول التي تسلك مسالكها في الحياة، بعد أن خيّمت عليهم المادية، وترسخت فيهم الفردية، وصاروا يعيشون حياتهم كلها بلا تذكر لخالقهم، ولا مبالاة بمصيرهم بعد الموت، فكانت النتائج مرعبة جداً، من انتشار أنواع الفجور والفساد، وشيوع التفاهة والانحراف، والانغماس في أوحال الشهوات، بلا قيم ولا أخلاق ولا إيمان! فيكون أحدهم أشبه بالدابة السائمة، يعيش ليأكل ويتمتع، لا خبر عنده لماذا هو موجود في الدنيا! ولا ما هو المطلوب منه فيها! ولا ماذا ينتظره بعد الموت بعد الخروج منها!

على أن العبد لا يستعد للموت ما لم يعرف معناه؟ ويعرف ما وراءه؟ إذ لا يمكن الاستعداد لشيء مجهول في ذاته أو ما يترتب عليه! ولهذا، فالذي يحمل المسلم على هذا الاستعداد جملة أمور:

✓ **أولاً**؛ تذكير النفس بأن أجل الموت غيب، فلا أحد يعلم متى ينتهي عمره وتحين ساعة موته، بل هذه النهاية شأن من شؤون الله تعالى وحده، كما أن ساعة الميلاد شأن من شؤونه.

✓ **ثانياً**؛ استحضار حقيقة أن الموت بوابة دخول إلى عالم آخر لا رجعة منه إلى الدنيا، بل الدنيا ما وُجدت إلا لأجل الاستعداد له والتهيئة بين يديه، فالموت ذهاب بلا عودة.

✓ **ثالثاً**؛ تذكير النفس بأن الموت ليس لحظة فناء واضمحلال، كما يعتقد ذلك الملاحدة والماديون، بل بالحري هو لحظة انتقال إلى حياة أبدية بلا حدود ولا قيود ولا نهاية ولا غاية.

✓ **رابعاً**؛ استحضار حقيقة أن ما وراء الموت منزلتان لا ثالث لهما، فإما الجنة إلى أبد الآبدين، وإما النار إلى أبد الآبدين، رغم أن بعض المسلمين قد يدخلون النار لكن يخرجون منها إلى الجنة.

✓ **خامساً**؛ تذكير النفس بأن الموت هو اللحظة الأولى لجرد مسيرة العمر في الدنيا، حيث يكتشف المحتضر حقيقة ما قضى فيه عمره من الخير أو الشر، الهوى أو الضلال، الصلاح أو الفساد.

✓ **سادساً**؛ استحضار حقيقة موت كل البشر، فعبر آلاف السنين مر قبلك ملايين من البشر: ملوك وحكام، علماء وحكماء، صالحون وأبرار، طغاة وفاسدون، ولابد أن تسلك يوماً سبيلهم.

فمهما تفكر العاقل في هذه المعاني، وقلّب فيها وجوه النظر، وجد في نفسه انزعاجاً عن هذه الدنيا، وتبيّن عنده أن كل طموح وهدف وغاية لا ترتبط بالله تعالى والآخرة ليس أكثر من عبث وسفه وجنون، وتأكد لديه أن التغافل عن الموت من قلة العقل وطيش النفس، ولهذا لا ينفع هذا التغافل، لأن الموت مهما طال تأخره فهو آت، وكل ما هو آت قريب!

ثم إن الناس في مواقفهم من الموت ثلاثة أصناف:

✓ **الصنف الأول**: هم الذين يعتبرون الموت نهاية الرحلة في الحياة، وليس وراءه إلا العودة إلى الفناء والمجهول والعدم. وهؤلاء هم الملاحدة الماديون.

✓ **الصنف الثاني**: هم الذين يؤمنون بالحياة بعد الموت، ولكنهم يتعاملون مع الأمر بالتغافل واللامبالاة، بالانغماس في شهواتهم وطموحاتهم ودنياهم.

✓ **الصنف الثالث**: هم الذين يؤمنون بالحياة بعد الموت، ولهذا يحرصون على الاستعداد للموت بالإيمان والعمل الصالح، لعلمهم أن ذلك مفتاح سعادتهم الأبدية.

وعلى كل حال؛ فإن للموت سلطة نفسية قاهرة على جميع الخلق، حتى وإن حاول بعض المتفلسفة التهوين من قضية الموت، فذلك مجرد آلية نفسية لإبعاد ضغط سؤاله على الوعي والضمير. وكل ما في الأمر أن الملاحدة الماديين، والعصاة المنحرفين يحاولون دائماً تفادي التفكر فيه، لأنه يشعرهم بالرعب، ولأنه يُذكّرهم بسوء ما هم عليه من العبث والسخف والتكالب على الملذات الدنيوية الفانية.

ويحسن هنا ذكر هذا الاقتباس المفيد: «اعلم أن خطر الموت عظيم، وإنما غفل الناس عنه لقلة فكرهم فيه وذكرهم له، ومَن تذكّره منهم فإنما يذكره بقلب غافل مشغول بشهوات الدنيا، لا بقلب فارغ، فلهذا لا ينجع ذكر الموت فيه. والطريق في ذلك، أن يفرغ العبد قلبه عن كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي هو بين

يديه كالذي يريد أن يسافر إلى مغارة مخطرة، أو يركب البحر فإنه لا يتفكر إلا في ذلك، فإذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك أن يؤثر فيه، وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا، وينكسر قلبه».[1]

شبهة وبيان:

قد يقول قائل: إذا كان الأمر على ما ذكرتَ حول أهمية الاستعداد على المستوى المعرفي والعملي، وأن هذا ما يحقق للعبد ــبإذن الله تعالىــ حسن الخاتمة، فكيف ــإذنــ نفهم قول النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿إنَّ الرَّجُلَ مِنكُم لَيَعْمَلُ حتَّى ما يَكونُ بيْنَهُ وبيْنَ الجَنَّةِ إلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عليه كِتَابُهُ، فَيَعْمَلُ بعَمَلِ أهْلِ النَّارِ، ويَعْمَلُ حتَّى ما يَكونُ بيْنَهُ وبيْنَ النَّارِ إلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عليه الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بعَمَلِ أهْلِ الجَنَّةِ﴾.[2] فالمتبادَر من هذا الحديث أن العبد قد يجهد نفسه إبّان حياته في الصلاح والاستقامة، لكن مع ذلك قد يُختم له بعمل فاسد يموت عليه فيدخل النار، وأيضاً قد يكون العبد إبّان حياته منغمساً في التيه والضلال والمعاصي، لكن مع ذلك قد يُختم له بعمل صالح يموت عليه فيدخل الجنة!

والجواب إن شاء الله: هذا الحديث تفسره الرواية الأخرى، وهي صحيحة في البخاري أيضاً: ﴿إنَّ الرَّجُلَ لَيَعمَلُ عَمَلَ أهلِ الجَنَّةِ فيما يَبْدو لِلنَّاسِ وهو مِن أهلِ النَّارِ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَعمَلُ عَمَلَ أهلِ النَّارِ فيما يَبْدو لِلنَّاسِ وهو مِن أهلِ الجَنَّةِ﴾. فقوله صلى الله عليه وسلم "فيما يبدو للناس" تنبيه على أن هذا الرجل الذي كان يُظهر الأعمال الصالحة كانت له في الحقيقة دوافع وأهداف أخرى، كالرياء والسمعة والعجب والغرور، فكان من الطبيعي ــإلا أن يتغمده الله بالتوبة النصوحــ أن يكون الخذلان في آخر عمره نصيبه جزاء وفاقاً، لأن الأمر مع الباري سبحانه لا يتعلق بظاهر العمل، بل في المقام الأول يتعلق بعمل القلب، كالإخلاص والصدق والحرص على الاتباع، ثم بعد ذلك يأتي عمل الجوارح، كما قال الفضيل بن عياض: «إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل، حتى يكون خالصاً صواباً. والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة».[3] والشيء نفسه بالنسبة للذي يعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس، فهو قد يكون مرتكباً للمعاصي، ثم يُوفّق للتوبة والصلاح قبل الموت، فيكون قد عمل بقلبه كالندم والمحبة والرجاء، وعمل بجوارحه كالصلاة والصيام والأذكار وقراءة القرآن فيجازى

1 . **منهاج القاصدين**. ابن الجوزي، ج 2 ص 1430، دار التوفيق، سوريا، ط 1/ 1431-2010

2 . **صحيح البخاري**

3 . **الإخلاص والنية**. ابن أبي الدنيا، ص 50، دار البشائر، الطبعة الأولى، بدون تاريخ

بالتثبيت عند الموت، أو قد يُتّهم من بعض الناس بغير بيّنة وهو عند الله بريء، فإذا مات كان من أهل الجنة، والله تعالى أعلم.

نعم؛ إن أساس الأعمال الخواتيم وما يموت عليه العبد، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿إنَّما الأعْمَالُ بالخَوَاتِيمِ﴾.[1] وقال الرب تبارك شأنه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾.[2] ومعنى المجيء أي الموت عليها. فهذه حقيقة لا شك فيها، لكن، لا ينبغي الغفلة عن الحقيقة الأخرى، وهي أن الله سبحانه أجلّ وأكرم وأعظم من أن يخذل عبداً أمضى حياته حريصاً على طاعته، وعبادته، واتباع سنة نبيه، حتى إذا انتهى أجله ختم له بما يوجب له العذاب! فهذا لا يليق بكمال الرب، وحكمته، ورحمته، وقد رأينا الكريم من بني آدم إذا رأى شخصاً حريصاً على مرضاته والتقرب إليه، أنه لا يخذله ولا يسلمه ولا يتغافل عنه كأنه لم يفعل في سبيل رضاه شيئاً، فكيف برب العالمين الذي أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم أنه ﴿حيِيٌّ كريمٌ يستحي إذا رفعَ الرَّجلُ إليْهِ يديْهِ أن يردَّهما صفرًا خائبتينِ﴾.[3] وفي حديث آخر يقول النبي صلى الله عليه وسلم عن العبد الذي قال كفراً من شدة الفرح بالفرج: ﴿اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِن شِدَّةِ الفَرَحِ﴾.[4]

وأما ما تراه في كلام بعض السلف من الخوف من الخاتمة، فهو يتعلق من خوفهم من آفات القلوب الباطنة، كالرياء الخفي وما يشبه ذلك، فتكون سوء الخاتمة _كما ذكرت آنفاً_ جزاء وفاقاً لما المعاصي القلبية التي هي أشد من معاصي الجوارح. والله تعالى أعلم

1 . **صحيح البخاري**
2 . **الأنعام**: 160
3 . **سنن الترمذي**
4 . **صحيح مسلم**

الفصل الرابع:

الثبات عند الممات

قضية الثبات عند الممات تحيلنا على جملة من الأمور، نتوقف عند أبرزها، وهي:

✓ **أولاً**: ترتبط فكرة الثبات عند الموت بالإيمان باستمرار الحياة بعده، حيث يكون الجزاء والحساب، فالذي لا يؤمن بذلك، لن تكون هذه الفكرة حاضرة في وعيه وشعوره، بل عندما يلم به خاطر الموت يكون معه خاطر مفارقة الإخوان، ومفارقة الملذات، ونهاية الحياة والعودة إلى العدم. أما بالنسبة للمؤمن فالأمر مختلف بالنسبة له لإيمانه بأن الموت ليس نهاية الرحلة، بل هو بداية رحلة جديدة لكنها خالدة أبدية. ولهذا يكون هَم الثبات حاضراً لديه لرجائه أن يكون ما بعد الموت راحة، وسعادة، وهناء، وسرور.

✓ **ثانياً**: قد تظاهر الشرع والعقل والفطرة على أنه لا يستوي عند الموت رجل عاش في الإيمان والصلاح والاستقامة، ورجل عاش في الشرك والفساد والمعاصي، كما قال تعالى: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾.[1] فهذه الآية وإن جاءت في معرض ذكر الجنة والنار، إلا إنها تشمل أطوار رحلة العبد من الدنيا والموت والبرزخ، إذ المساواة بين الصالح التقي والطالح الشقي في هذه المواطن كافة يتعارض مع كمال عدل الله تعالى، والرب تعالى يتنزه عن كل ما لا يليق بكماله وعظمته وجلاله.

✓ **ثالثاً**: قول الله جل جلاله: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾.[2] أي حتى يأتيك الموت، لأنه حقيقة مطلقة لا لبس فيها ولا غبش، حتى وإن تغافل عنها الإنسان وتجاهلها بالانغماس في صراعاته ورغباته وطموحاته. ومن هنا، فهذه الآية تنبيه على أن الحياة في وعي المسلم وحسه، بمختلف مجالاتها ونشاطاتها وعلاقاتها وأهدافها ينبغي أن تكون مطبوعة بطابع العبادة لله، وذلك بالتزام تعاليم شرعه، لكي يعيش المسلم موصلاً بخالقه وبالآخرة في كل شيء، فبهذا يحقق معاني العبودية التي خُلق لها.

---

1 . **القلم**: 35 — 2 . **الحجر**: 99

✓ **رابعاً**؛ سنة الله تعالى في البشر، أن من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بُعث عليه. ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾.**[1]** فالأمر بالموت على الإسلام دلالة على أن من عاش بالإسلام وللإسلام مات عليه. قال ابن كثير في تفسيره عند هذه الآية: «أَيْ: حَافَظُوا عَلَى الْإِسْلَامِ فِي حَالِ صِحَّتِكُمْ وَسَلَامَتِكُمْ لِتَمُوتُوا عَلَيْهِ، فَإِنَّ الْكَرِيمَ قَدْ أَجْرَى عَادَتَهُ بِكَرَمِهِ أَنَّهُ مَنْ عَاشَ عَلَى شَيْءٍ مَاتَ عَلَيْهِ، وَمَنْ مَاتَ عَلَى شَيْءٍ بُعث عَلَيْهِ».**[2]**

✓ **خامساً**؛ حمل هَم الثبات عند الممات يرسخ في العبد ضرورة الحذر من الاغترار بأعماله وأحواله، من أجل أن الغرور والعجب والرياء وسائر آفات القلوب من محبطات الأعمال، كما جاء في الحديث القدسي عن رب العزة: ﴿أنا أغْنَى الشُّرَكاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَن عَمِلَ عَمَلًا أشْرَكَ فيه مَعِي غيرِي، تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ﴾.**[3]** وبهذا الحذر واليقظة سيكون العبد حريصاً على التصفية والإخلاص، لعلمه الثابت أن الشأن كله هو الموت على الإيمان والصلاح وليس فقط الحياة بالإيمان والصلاح.

تنبيه وتحذير:

ضرورة الحذر من الوقوع في فخ اليأس من رحمة الله تعالى، أو إساءة الظن به، لأن هذا نفسه كبيرة من الكبائر التي يُخشى على صاحبها عليه عند الموت. وإنما الواجب على العبد الحرص على القيام بواجباته من الإيمان والطاعة والصلاح، واجتناب المعاصي والفساد والانحراف، مع الرجاء في رحمة الله تعالى، والطمع في فضله، وحسن الظن به، والرب سبحانه أكرم وأجل من أن يخذل عبداً هذا شأنه.

وبعد؛ فلنذكر أصول أسباب الثبات عند الموت، وهي:

✓ **أولاً**: كثرة الدعاء والتضرع بالثبات بالحق وعلى الحق في الحياة وعند الممات. وهذا ديدن الأنبياء والصالحين من قبل، قال الله تعالى عنهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾.**[4]** وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه: ﴿يا مقلِّب القلوب، ثبِّتْ قلبي على دينك﴾.**[5]** وهذا يشمل موقف الدنيا وموقف الموت.

---

1 . **آل عمران**: 102
2 . **تفسير القرآن العظيم**. ج 2 ص 87
3 . **صحيح مسلم**
4 . **آل عمران**: 8
5 . **سنن الترمذي**

✓ **ثانياً**: الحرص على اتباع السنة، في الاعتقاد، والسلوك، والقيم، والأخلاق. فهذا الحرص دليل صادق على محبة العبد لله ولرسوله، وأيضاً فهو يورث النفس كيفية نورانية تكون له جُنّة في الحياة وعند الممات. أما صاحب البدعة، المعاند فيها والمصر عليها، فلا شك أنه على خطر عظيم عند الموت، كما قال تعالى: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.[1]

✓ **ثالثاً**: الاجتهاد في تزكية النفس، وتصفيها من الآفات الباطنة، والذنوب القلبية، كالكبر والعجب والرياء والسمعة والغرور والنفاق وغير ذلك. فإن الذي تكون نفسه متدنّسة بهذه الآفات الكامنة، يكون مظنة الخذلان عند الموت، عقوبة له من ربه عز وجل، إذ تلبّسه بتلك الآفات القلبية وحرصه على الظهور بمظهر الصالح التقي، في واقع الأمر استخفاف بالله تعالى وعدم مبالاة بعلمه وسمعه وبصره!

✓ **رابعاً**: السعي للتعرّف على الله تعالى كما عرّف بنفسه في القرآن والسنة، والشوق إلى لقائه وما أعد لعباده الصالحين في جنات النعيم، إذ لا يُتصوّر شوق العبد إلى الله تعالى والجنة دون أن يكون له حظ حسن من العلم بذلك. ثم إن هذه المعرفة تعمل على فصل العبد عن الدنيا ووصله بالآخرة، فلا يكون غائب أحب إليه من الموت ليخرج من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، فيحب لقاء الله تعالى ويفرح به.

✓ **خامساً**: تجديد حسن الظن بالله تعالى، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: ﴿أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي﴾.[2] وقال صلى الله عليه وسلم: ﴿لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إلَّا وَهو يُحْسِنُ الظَّنَّ باللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ﴾.[3] وكان السلف يستحبون ذلك عند الموت، لأن إبليس له حضور هنا، وقد يكثّف وساوسه بالتيئيس من رحمة الله تعالى، فتغمر هذا المحتضر ظلمةُ اليأس وسوءُ الظن بربه، فيكون في ذلك هلاكه.

✓ **سادساً**: الوصية بتلقين شهادة التوحيد، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿لَقِّنوا موتاكم لا إلهَ إلا اللهُ، فإنَّ مَن كان آخرَ كلامِه لا إلهَ إلا اللهُ عند الموتِ دخلَ الجنةَ يوماً مِن الدَّهرِ، وإن أصابَه قبلَ ذلك ما أصابَه﴾.[4] أي على فرض قد يدخل النار عقوبة على بعض ذنوبه، فإن مصيره النهائي إلى الجنة. وفائدة التلقين أن العبد يكون في السكرات، فيكون له منّبهاً ليُختم له بها.

---

1 . **النور**: 63

2 . **صحيح البخاري**

3 . **صحيح مسلم**

4 . **مسند أحمد**

✓ **سابعاً**: كان جماعات من السلف والصالحين يحرصون على اغتنام تلك الأوقات التي بين يدي خروج الروح في الذكر وتلاوة القرآن، لأن العبد الآن على بُعد لحظات من طيّ صحيفته لا يزاد فيها ولا ينقص منها، فجدير إذن أن يغتنم هذه اللحظات الأخيرة في ذلك، فإنه لا يدري بأي شيء قد يُغفر له، ولا بأي شيء يُفتح له باب الجنة. ولهذا لا ينبغي أن يشغل نفسه بالحاضرين حوله.

فهذه المعالم السبعة _والله تعالى أعلم_ من أهم أسباب الثبات عند الممات. والله الموفق

ولقد وعد الله تعالى بتثبيت أهل الإيمان والصلاح فقال: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِى ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾.[1] وهذا التثبيت يشمل: **محطة الدنيا**، في وجه فتن الشبهات، وفتن الشهوات، وفتن الابتلاءات. و**محطة الموت**، في وجه السكرات والضغوط، والمحاولات الأخيرة لإبليس في الإضلال. و**محطة البرزخ**، في وجه سؤال الملكين، والحساب الأولي لحياة العبد في الدنيا. و**محطة الحشر**، في وجه الأهوال الفظيعة فيه، وفتح الصحيفة للحساب والجزاء.

وبعد؛ فقد تواتر بين الناس مجموعة من الأقوال والوصايا من بعض المحتضرين، فنبينا صلى الله عليه وسلم لما حضره الموت، قال: ﴿اللَّهم اغفِر لي وارحَمني وألحِقني بالرَّفيقِ الأعلَى﴾.[2] وقال وهو في هذه اللحظات: ﴿الصلاةَ الصلاةَ، اتقوا اللهَ فيما ملكت أيمانُكم﴾.[3] وقصّ القرآن وصية النبي يعقوب عليه السلام عند الموت: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾.[4]

ولما حضر الموت الصحابي عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال لابنه: «يا بني اتق الله، واعلم أنك لن تتقي الله عز وجل، ولن تبلغ العلم حتى تعبد الله عز وجل وحده، وتؤمن بالقدر خيره وشرّه. فقال الابن: يا أبه، كيف لي أن أؤمن بالقدر خيره وشره؟ فقال: تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، فإن متَّ على غير هذا دخلت النار، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن أول ما خلق اللهُ القلمَ، فقال عز وجل له: اكتب. فقال: ما أكتب؟ فقال عز وجل: القدر. فجرى تلك الساعة بما كان وما هو كائن إلى الأبد».

---

1 . **إبراهيم**:28

2 . **سنن الترمذي**

3 . **سنن أبي داود**

4 . **البقرة**: 133

وبالنسبة للملاحدة والمشركين، فنُقل عن توماس هوبس فيلسوف سياسي وكاتب ملحد، أنه قال عند موته: «أنا على وشك القفز في الظلام، ولو كنت أملك العالم في هذه اللحظة، لدفعته لشراء يوم واحد في الحياة». وقال توماس سكوت، وهو مستشار إنكليزي عند الموت: «حتى لحظات مضت لم أؤمن بوجود الله أو جهنّم، ولكني الآن أعلم وأشعر بوجودهما حقيقة وأنا الآن على شفير العذاب، وهذا حكم الله العادل». وقال فرنسيس نيوبرت رئيس نادي الملحدين البريطانيين: «لا تقولوا لي لا يوجد إله، فأنا الآن في حضرته. ولا تقولوا لي لا توجد جهنّم، فأنا الآن أحسّ أنّي أنزلق فيها تعِسًا. أيها الحمقى، توقفوا عن كلامكم الخامل عن وجود أمل لي! أعلم أنني ضعت إلى الأبد! آه، هذه النار! أوه، آلام الجحيم التي لا تحتمل!».

نسأل الله تعالى بمنّه وفضله أن يثبتنا عند الموت، وأن يبشّرنا برحمته ورضوانه.

والحقيقة أنه يمكن أن نمثل لحظة الموت بأنها لحظة "كل إناء بما فيه ينضح"، ولهذا تختلف كلمات الناس ووصاياهم عند الموت، بحسب ما عاشوا فيه مدة حياتهم. فأما أهل الدين والإيمان والتوحيد والصلاح، فلا تجد في كلامهم عند الموت ووصاياهم إلا ما يعكس الدين، والإيمان، والتوحيد، والصلاح، والشوق إلى لقاء ربهم والرجاء في رحمته أو الخوف من ذنوبهم وتفريطهم. وأما أهل الانحلال والفساد والانحراف والشرك والنفاق والإلحاد، فلا تجد في كلامهم عند الموت ووصاياهم إلا ما يعكس ذلك كله.

ꕥ سؤال وجواب:

فإن قلتَ: من الثابت أن للموت سكرات، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿إنَّ للموتِ سَكَراتٍ﴾.[1] والسكرات هي الآلام والضغوط والشدائد، وهذه السكرات تشمل المؤمن والمنافق والكافر، إذن على حسب هذا المعنى لا فرق بين الجميع!

قلتُ: ليس الأمر كذلك؛ نعم، فالسكرات تشمل المؤمن والمنافق والكافر، لكن، سكرات المؤمن ليست كسكرات المنافق والكافر. بيان ذلك هو:

سكرات المؤمن مقصدها والغاية منها هو تكفير السيئات وزيادة الحسنات ورفعة الدرجات، ولهذا عانى منها حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم لا لتكفير السيئات فهو مغفور له بنص القرآن، بل لمزيد الرفعة والسمو في المنزلة. وبالنسبة للمؤمنين، تتعلق السكرات بتكفير السيئات وزيادة الحسنات، وهو يدخل في

---

1 . **صحيح البخاري**

باب الابتلاءات التي يؤجر عليها المؤمن، فهو يؤجر على كل شيء يصيبه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿ما يُصِيبُ المسْلِمَ، مِن نَصَبٍ ولَا وصَبٍ، ولَا هَمٍّ ولَا حُزْنٍ ولَا أذًى ولَا غَمٍّ، حتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بهَا مِن خَطَايَاهُ﴾.[1] ولهذا أخبر النبي صلى الله عليه وسلم في حديث قبض الأرواح، أن المؤمن تنزل إليه ملائكة بِيض الوجوه، ثم: ﴿يجيءَ ملَكُ الموتِ، حتَّى يجلسَ عند رأسِه، فيقول: أيَّتُها النَّفسُ المطمئنَّةُ، اخرُجِي إلى مغفرةٍ من اللهِ ورضوانٍ﴾.[2] وهذا الخطاب الرفيق مع مظهرهم النوراني المشرق، لأجل إدخال السرور والهدوء على روح المؤمن. جعلنا الله بفضله منهم.

أما بالنسبة للمنافق والكافر، فسكرات الموت ليست تكفيراً لسيئاته أو زيادة في حسناته، بل هي أول العذاب والأهوال العظيمة التي تنتظره، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾.[3] ولهذا ورد في حديث قبض الأرواح، أن المنافق والكافر تنزل إليهم ملائكة سود الوجوه، بمظاهر جسدية فظيعة، وذلك لإدخال الرعب الشديد على روح هذا المنافق والكافر، ثم: ﴿يجيءُ ملَكُ الموتِ حتَّى يجلسَ عندَ رأسِه، فيقولُ: أيَّتُها النَّفسُ الخبيثةُ، اخرُجي إلى سخَطٍ من اللهِ وغضبٍ. قال: فتَفرَّقُ في جسدِه، فينتزِعُها كما يُنتزَعُ السَّفُّودُ من الصُّوفِ المبلولِ﴾.[4] فكما ترى، فهنا خطاب عنيف، ثم نزع شديد للروح لإخراجه من الجسد. وقد أشار الغزالي إلى معنى لطيف يؤيده هذا الحديث، وهو أن ألم النزع يرجع لكونه يتعلق بالروح نفسه، عكس الآلام في مدة الحياة التي تقع على جزء من الروح، كجرح في اليد أو عملية في عضو معين، فلما كان الألم هنا يتعلق بالروح كله، كان شديداً رهيباً،[5] نعوذ بالله العظيم.

---

1 . **صحيح البخاري**

2 . **مسند أحمد**

3 . **الأنعام**: 93

4 . **مسند أحمد**

5 . **إحياء علوم الدين**. ج 9 ص 358

الفصل الخامس:

أسئلة القبر الثلاثة

سبق أن ذكرت بأن العبد إذا مات فإنه لا ينتقل مباشرة إلى الجنة أو النار ليخلد فيها، وإنما يمر أولاً بعالم يتوسط عالمي الدنيا والآخرة، اصْطُلِحَ عليه بعالم البرزخ أو عالم القبر، كما قال الحق تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ. لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾.[1] قال ابن كثير: «يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالِ الْمُحْتَضِرِ عِنْدَ الْمَوْتِ، مِنَ الْكَافِرِينَ أَوِ الْمُفْرِطِينَ فِي أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقِيلِهِمْ عِنْدَ ذَلِكَ، وَسُؤَالِهِمُ الرَّجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا، لِيُصْلِحَ مَا كَانَ أَفْسَدَهُ فِي مُدَّةِ حَيَّاتِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: "رَبِّ ارْجِعُونِ، لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا"، كَلَّا حَرْفُ رَدْعٍ وَزَجْرٍ، أَيْ: لَا نُجِيبُهُ إلى ما طلب ولا نقبل منه».[2] فعالم البرزخ أنموذج مصغر لعالم الآخرة الأكبر، سواء من حيث المحاكمة والجزاء أو من حيث الثواب والعقاب. وبهذا الاعتبار، فإن عالم القبر هو أول مراحل الآخرة، فإما أن يكون روضة من رياض الجنة، أو أن يكون حفرة من حفر النار.

ولقد أخبرنا الوحي بأن العبد إذا دخل القبر جاءه مَلَكان، فيعرضان عليه ثلاثة أسئلة، هي المعيار الأبرز للنجاة أو الهلاك. وهي: مَن ربك؟ ما دينك؟ ماذا تقول في محمد صلى الله عليه وسلم؟

في الحديث الصحيح الذي رواه الصحابي الجليل البراء بن عازب رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه بأن العبد إذا قُبر: ﴿فيأتيه ملَكان فيُجلِسانِه فيقولان له: من ربُّك؟ فيقولُ: ربِّيَ اللهُ. فيقولان له ما دينُك؟ فيقولُ: ديني الإسلامُ. فيقولان له: ما هذا الرَّجلُ الَّذي بُعث فيكم؟ فيقولُ: هو رسولُ اللهِ. فيقولان له: وما علمُك؟ فيقولُ: قرأتُ كتابَ اللهِ فآمنتُ به وصدَّقتُ. فينادي منادٍ من السَّماءِ: أنْ صدَق عبدي، فأفْرِشوه من الجنَّةِ، وألبِسوه من الجنَّةِ، وافتحوا له بابًا إلى الجنَّةِ. فيأتيه من روحِها وطيبِها، ويُفسحُ له في قبرِه مدَّ بصرِه﴾، ثم يقول النبي صلى الله عليه وسلم في بيان حال الكافر والمنافق إذا قُبر:

---

1 . **المؤمنون**: 99-100

2 . **تفسير القرآن العظيم**. ج 5 ص 493، بتصرف

﴿يأتيه ملَكانِ فيُجلِسانِه فيقولان له: من ربُّك؟ فيقولُ: هاه هاه، لا أدري! فيقولان: ما دينُك؟ فيقولُ: هاه هاه لا أدري! فيقولان: ما هذا الرَّجلُ الَّذي بُعِث فيكم؟ فيقولُ: هاه هاه، لا أدري! فينادي منادٍ من السَّماءِ: أنْ كذَب، فأفْرِشوه من النَّارِ، وافتحوا له بابًا إلى النَّارِ. فيأتيه من حرِّها وسَمومِها، ويُضيَّقُ عليه قبرُه حتَّى تختلفَ فيه أضلاعُه﴾.[1] فهذا الحديث _الذي اختصرته_ فيه بيان وتفصيل لما يحدث لكل إنسان بعد أن يموت ويدفن في قبره، سواء كان عبداً صالحاً، أو كان عبداً منافقاً أو كافراً.

وهنا قد يسأل سائل: لماذا هذه الأسئلة الثلاثة؟

والجواب وبالله التوفيق هو: لأن العبد يكون قد دخل عالم الأبدية، وهذا العالم يتسم بالتالي:

أولاً؛ هناك منزلان لا ثالث لهما، إما الجنة أبداً، بما فيها من نعيم، وسعادة، وهناء، وسرور، أو النار أبداً، بما فيها من عذاب، وشقاء، ومأساة، وثبور.

ثانياً؛ ليس للعبد حق تقرير مصيره، فهذا الحق أُعطي له في عالم الدنيا، أما بعد انتقاله إلى عالم الأبدية فهو يحصد ما زرع، ويجني ما بذر، أي إنه يواجه نتيجة اختياراته في الدنيا.

ثالثاً؛ الله سبحانه هو الذي حدد شروط الفوز بالجنة والنجاة من النار، ولهذا فقد أرسل أنبياءه ليكونوا حجة على الخالق، وأنزل شرائعه لتكون معالم في طريق الهداية والفلاح.

إذن؛ لما كان البرزخ أول منازل الآخرة، لا جرم أن كان يكون أنموذجاً مصغراً منها، فيكون فيه ضرب من الحساب والجزاء والثواب والعقاب. ثم يُستكمل ذلك يوم الحشر، فأما المؤمن فيُستكمل له النعيم والثواب بدخول الجنة، وأما الكافر فيُستكمل له العذاب والعقاب بدخول النار.

نقل ابن رجب عن بعض أهل العلم في تعليل الأحاديث النبوية التي كشفت أن عامة عذاب القبر (بالنسبة لأهل الإيمان) من البول والنميمة والغيبة: «القبر أول منازل الآخرة وفيه أنموذج ما يقع في يوم القيامة من العقاب والثواب. والمعاصي التي يعاقب عليها يوم القيامة نوعان حق الله وحق لعباده وأول ما يقضي فيه يوم القيامة من حقوق الله الصلاة ومن حقوق العباد والدماء. وأما البرزخ فقضي فيه في مقدمات هذين

---

1 . **سنن أبي داود**

الحقين ووسائلها فمقدمة الصلاة الطهارة من الحدث والخبث ومقدمة الدماء النميمة الوقيعة في الأعراض وهما أيسر أنواع الأذى فيبدأ في البرزخ بالمحاسبة والعقاب عليهما».[1]

بناء على هذا؛ يكون من الطبيعي أن تكون أسئلة الملكين لها تعلق وثيق بهذه الحقائق:

✓ الإيمان بالله تعالى هو أول شرط لدخول الجنة والنجاة من النار،

✓ ثم هذا لا يكفي، بل لابد من توفر شرط ثان، وهو أن يكون الدين المتّبع دين الله تعالى،

✓ ثم هذا لا يكفي، بل لابد من توفر شرط ثالث، وهو الإيمان بخاتم الأنبياء وإمام المرسلين.

وإلا فلابد أن نقول:

✓ مَن كفر بالله وأشرك به يكون قد نقض أول شرط لدخول الجنة والنجاة من النار،

✓ مَن اتبع ديناً غير دين الله المنزل يكون قد نقض ثاني شروط دخول الجنة والنجاة من النار،

✓ مَن أنكر محمداً صلى الله عليه وسلم يكون قد نقض ثالث شروط دخول الجنة والنجاة من النار.

إذن؛ هنا لا يوجد تقدير لأي اعتبار آخر من الاعتبارات التي يعظمها الناس في عالم الدنيا، كالعرق، واللون، والجنس، والقبيلة، والبلد، والمكانة الاجتماعية، بل الكل هنا سواسية، وإنما الميزان والفرقان هو مدى قيام هذا الميت بحقوق الله تعالى: الإيمان أو الكفر، التوحيد أو الشرك، الطاعة أو المعصية، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾.[2] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّ الله لا يَنْظُرُ إِلى أَجْسامِكُم، وَلا إِلى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وأَعْمَالِكُمْ﴾.[3] وقال صلى الله عليه وسلم: ﴿لا فضلَ لعربيٍّ على عجميٍّ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى﴾.[4] وهذا من كمال عدل الله تعالى في التعامل مع عباده، ومن حجته البالغة عليهم لكي لا يتعلل أحد منهم بأنه لم يكن له اختيار في عرقه أو لونه أو جنسه أو قبيلته أو غير ذلك.

---

1 . **أهوال القبور وأحوال أهلها إلى النشور**. ص 162، مكتبة دار الزمان، ط 1/ 1433-2012

2 . **الحجرات**: 13

3 . **صحيح مسلم**

4 . **مسند أحمد**

🙣 تنبيه لطيف:

هنا تنبيه لطيف له تعلق بسياق هذا الفصل، وهو أن البرزخ لما كان المنزلة الأولى في مسار الأبدية، ودخول عالم الآخرة، وهذا ما يعني تعرّض العبد للحساب والجزاء على ما قدّم في الدنيا، لما كان الأمر كذلك، فإن تثبيت الله تعالى للعبد المؤمن في القبر هو أول الجزاء والثواب له على ما قدّم من الإيمان والتوحيد والطاعة والصالحات. ذلك أن المؤمن بدخول البرزخ يكون قد دخل عالماً آخر، لا يعرفه ولا يفهمه، ويكون بين أيدي مخلوقات لم يسبق له أن رآها أو رأى ما يشبهها، ولا شك أن هذا الموقف في الأصل يكون موقف دهشة وحيرة، إلا إن الرب تبارك شأنه يثبت هذا العبد الصالح بما معه من الإيمان والتوحيد والصلاح. قال سبحانه: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.[1]

وأيضاً؛ فخذلانه سبحانه للعبد المنافق والكافر في القبر هو أول الجزاء والعقاب على ما قدّم من الكفر والشرك والنفاق والإلحاد والمعصية والانحراف. فالمنافق والكافر إذا دخل عالم البرزخ فإنه يدخل عالماً لم يكن له به علم، كما شأن المؤمن الذي قرأ القرآن والسنة وآمن وصدّق بأخبار البرزخ والآخرة، بل حتى ما كان يسمعه كان يسخر منه ويستهزئ به، فمن الطبيعي أن يخذله الحق تعالى، ويتركه لنفسه يواجه مصيره الحتمي، لأن عاش حياته الدنيوية معرضاً، متجاهلاً، لامبالياً، والجزاء من جنس العمل. ولله الحجة البالغة، ولهذا قال سبحانه في الآية السابقة: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾.

❁ شبهة وبيان:

من الشبهات الرائجة اليوم والتي يمكن أن نتوقف عندها في هذا الفصل: شبهة أن معيار فلاح الإنسان بعد الموت هو أن يكون ذا أخلاق جميلة، ويساعد الناس، ولا يؤذي أحداً، ويقدم النفع لغيره. ويرتّبون على هذا قولهم: كيف يمكن أن يكون فلان في النار، وهو الذي قدم للبشرية خدمات جليلة في الطب أو الفيزياء أو غير ذلك، لمجرد أنه غير مسلم؟ وكيف يمكن أن تكون فلانة في النار، وهي التي ما فتئت تقدم المساعدات للفقراء والمساكين والمرضى من شعوب أخرى بعد أن تركت بلدها وأهلها في سبيل ذلك؟

والجواب؛ هو أن أسئلة القبر الثلاثة تُسقط هذه الشبهة. وذلك أن هذه الشبهة قائمة على أساس فكرة أن الإله الخالق ترك الناس سدى، بلا مرجعية معيارية للصلاح والفساد، ولأعمال الجنة وأعمال النار،

---

1 . إبراهيم:27

بل وَكِلهم إلى قيم الإنسانية فيهم، وفوّض إليهم التعامل بها والحكم على أساسها! ولهذا، فبالنسبة لأصحاب هذه الشبهة، فإن قضية التوحيد والشرك لا قيمة لها في تقويم الإنسان، بل مرجع ذلك إلى الأخلاق والقيم الإنسانية المجردة، وما يقدمه لغيره من النفع والفائدة والخدمات!

وهذا كما ترى، من صميم التفكير الشركي المادي! ولهذا نقول: الرب سبحانه هو الذي خلق الإنسان لما يريد من القصد والغاية، وقد بيّن له من خلال أنبيائه وشرائعه الذين أرسلهم إليه حقيقة هذه الغاية المخلوق لها في الدنيا، كما بيّن له الطريق التي تؤدي إلى الجنة والطريق التي تؤدي إلى النار بعد الموت، وأساس ذلك هو الإيمان والتوحيد واتّباع النبي والخضوع للوحي والشرع الذي جاء به. وهذا هو المنطق الفطري، فهو سبحانه خالق الإنسان، وخالق الدنيا، وخالق الآخرة، فله الحق وحده لا شريك له في تحديد شروط القبول عنده ودخول الجنة، أو الطرد من رحمته ودخول النار. والله الموفق

وأيضاً من التلبيسات الرائجة اليوم؛ فكرة وحدة الأديان، فبالنسبة لأصحاب هذا التلبيس، فإن اليهودية والنصرانية والإسلام شيء واحد من حيث الجوهر والأهداف، والاختلافات بينها جزئية تشبه الاختلافات بين إصدارات الهواتف التي تشتغل بنظام واحد رغم اختلافها في المظهر والشكل وما يشبه ذلك. ومن هنا، فالإسلام واليهودية والنصرانية كلها طرق إلى الله والجنة!

والجواب؛ هو أن سؤال البرزخ "ما دينك؟"، وسؤال "ما تقول في هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟" يسقطان هذا التلبيس ويكشفان زيفه وتهافته. والمغالطة الكامنة في هذا التلبيس هي أن الحق تبارك شأنه لم يحدد للناس المعايير الموضوعية للدين الحق، لأنه إذا كانت اليهودية حق، والنصرانية حق، والإسلام حق، إذن نحن أمام قضية عبث، والعبث يتنزه عنه الرب جل جلاله. وأمر آخر، وهو أن الاختلافات بين هذه الأديان الثلاثة ليست جزئية كما يروجون له، بل جوهرية، ويكفي إلمام بها لإدراك ذلك، وكيف يستوي مثلاً التوحيد الإسلامي مع التثليث النصراني؟! ولهذا، لو كانت هذه الأديان الثلاثة حقاً وصواباً عند الله تعالى لما كان لتخصيص السؤال عن الموقف من الرسول محمد صلى الله عليه وسلم أي معنى، وإنما كان ينبغي أن يكون السؤال متعلقاً بموسى وعيسى عليهما السلام أيضاً!

الفصل السادس

سؤال: مَن ربك؟

مَن ربك؟ هذا هو السؤال الأول الذي يُمتحن به الميت في القبر. وكما ورد في الحديث المذكور سابقاً، فإن جواب المؤمن هو "ربي الله"، وأما جواب المنافق أو الكافر فهو "هاه هاه، لا أدري!".

وكما ترى، فإن الجوابين معاً يعبّران في الحقيقة عن الموقف المعرفي من وجود الله تعالى في الدنيا. فجواب المؤمن في القبر يعكس موقفه الجاد والمسؤول من وجود الله تعالى في الدنيا، وأما جواب المنافق أو الكافر في البقر فيعكس موقفه الهازل والعابث واللامبالي من وجود الله تعالى في الدنيا!

إن أول ما يثير الانتباه في سؤال "من ربك"؛ هو أن الملكين لم يسألا "هل تؤمن بالله؟"، وهو السؤال الذي يبدو في النظرة العجلى، السؤال أكثر منطقية! وإنما سألا "من ربك؟"!

يمكن أن نفهم من ذلك؛ الدلالة على أن الإنسان مُتعبّد بالضرورة الفطرية لإله معين، يكون في فكره وشعوره، هو المطلق، والمقدس، والمتعالي، والمتصف بالكمال اللانهائي. ومن هنا؛ فالملكان بهذا السؤال "من ربك؟" يتجاوزان سؤال "هل تؤمن بالله؟" الدال ضمناً على احتواء الفطرة إمكانية الخلو من الإيمان بالإله والاعتراف بمبدأ وجوده، وهذا عكس دلالة سؤال "من ربك؟" التي تشير إلى نفي هذه الإمكانية.

إذا صح هذا الاستنتاج، ويبدو ــوالله أعلمــ أنه صحيح، فإن صيغة سؤال الملكين توافق نظرة الوحي لكون الإيمان بالله تعالى فطرة فُطر عليها الإنسان، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿كلُّ مولودٍ يولَدُ على الفطرةِ فأبواه يُهوِّدانِه أو يُنصِّرانِه أو يُمجِّسانِه﴾. وكان أبو هريرة رضي الله عنه يذكر عقب ذكر هذا الحديث قول الله تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾.[1]

---

1 . **صحيح البخاري**

ونفهم من السؤال أيضاً؛ أن هناك جواباً محدداً، هو المعيار الثابت في أن يكون القبر روضة من رياض الجنة أو أن يكون حفرة من حفر النار. ومن هنا، فالرب الذي ينبغي أن يقال جواباً للسؤال له صفات معينة ونعوت محددة، وليس معنى مطلقاً، يجعل منه فكرة ضبابية في الأذهان! هذه الحقيقة، حقيقة أن الرب الحق له صفات ونعوت محددة وواضحة، هي التي جهلها المشركون والملحدون على مر التاريخ، فوقعوا بذلك في أنواع الشرك، وألوان الكفر، وأصناف الجحود، والإنكار!

نعم؛ فالإسلام كما يعترف بأن وجود الله تعالى فطرة فُطر الناس عليها، ولا يمكنهم تجاوزها والانسلاخ عنها، فإنه يعترف كذلك أن هذه الفطرة الربانية يمكن أن تتشوه، وتنحرف، وتضل عن معرفة الإله الحق، وذلك بفعل تربية البيت، أو ثقافة المجتمع، أو الانخداع بتلبيسات الملاحدة بمختلف اتجاهاتهم. وقد قرّر النبي صلى الله عليه وسلم هذا المعنى بقوله في الحديث السابق: ﴿كلُّ مولودٍ يولَدُ على الفطرةِ فأبواه يُهوِّدانِهِ أو يُنصِّرانِهِ أو يُمجِّسانِهِ﴾. فهنا لدينا تأثير البيئة الأسرية في تحريف الفطرة، وتشويه حقيقتها.

بعد هذه المقدمة المقتضبة، نأتي للتعريف بالله تبارك وتعالى، فأقول وبالله التوفيق:

أولاً؛ الألوهية تعني الاتصاف بالكمال المطلق، في الذات، والأسماء، والصفات، والأفعال. وهذا ما يعني أن الإله الخالق يختلف اختلافاً جوهرياً عن مخلوقاته كافة، سواء في ذاته وصفاته وأفعاله. إذ لو تصورنا وجود التماثل بينهما، لسقط تلقائياً مفهوم الخالقية ومفهوم المخلوقية. يقول تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾.[1] قال السعدي في تفسيره عند هذه الآية: «أي: ليس يشبهه تعالى ولا يماثله شيء من مخلوقاته، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، لأن أسماءه كلها حسنى، وصفاته صفة كمال وعظمة، وأفعاله تعالى أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك، فليس كمثله شيء، لانفراده وتوحده بالكمال من كل وجه».[2] ويقول سبحانه: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾.[3] قال ابن عباس: «هَلْ تَعْلَمُ لِلرَّبِّ مَثَلًا أَوْ شَبَهًا».[4] وسورة الإخلاص فصّلت هذا المعنى بصورة أوسع: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ. ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ. لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ. وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾.

---

1 . **الشورى**: 11

2 . **تيسير الكريم الرحمن**. ص 754، مؤسسة الرسالة، ط 1/ 1423-2002

3 . **مريم**: 65

4 . **تفسير القرآن العظيم**. ج 5 ص 250

ثانياً؛ وجود الله تعالى وجود حقيقي، وليس وجوداً ذهنياً كما اعتقد ذلك بعض الناس قديماً وحديثاً! وحقيقة هذا القول "وجود ذهني/روحي" تصير إلى نفي وجوده سبحانه! من هنا، فمعنى قولنا بأن وجود الله وجود حقيقي، أي إنه سبحانه له ذات حقيقية، لها أسماء وصفات، ويمكن أن تُرى بالأبصار كما شاء، كما قال سبحانه: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ﴾.[1] وقال سبحانه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾.[2] وإذ كان الأمر كذلك، فالرب تعالى مباين للعالم، وخارج حدوده، ومتعال عليه، فلا شيء منه سبحانه داخل العالم المخلوق، ولا شيء من العالم المخلوق فيه سبحانه، وكلمة العالم هنا تعني كل شيء عدا الله تعالى، من العرش إلى أسفل شيء. ولهذا ورد الشرع بالإخبار عن كونه سبحانه يبصر، ويسمع، ويتكلم متى شاء، ويفعل ما يريد، وأنه ينزل ويجيء، ويحب ويبغض، وأنه مستو على عرشه، وأيضاً ورد بأن المؤمنين يرونه سبحانه في الآخرة كيف شاء، بل هذه الرؤية أعظم لذات أهل الجنة. قال النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ يَومَ القِيَامَةِ﴾.[3] وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾.[4]

ثالثاً؛ بما أن الإله الخالق متصف بالكمال المطلق؛ فلابد إذن أن تثبت له الأولية المطلقة، فهو الأول الذي ليس قبله شيء، ووجوده أزلي بلا بداية، ما زال موجوداً وحده لا شريك له، بكماله وجلاله، وبأسمائه وصفاته، إلى أن شاء أن يبدأ خلقه للخلق حسبما سبقت بذلك إرادته القديمة وحكمته الأزلية. يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾.[5] قال الطبري في تفسيره عند هذه الآية: «"هُوَ الأَوَّلُ" قبل كل شيء بغير حدّ. "وَالآخِرُ" يقول: والآخر بعد كل شيء بغير نهاية. وإنما قيل ذلك كذلك، لأنه كان ولا شيء موجود سواه، وهو كائن بعد فناء الأشياء كلها. "وَالظَّاهِرُ" يقول: وهو الظاهر على كل شيء دونه، وهو العالي فوق كل شيء، فلا شيء أعلى منه. "وَالْبَاطِنُ" يقول: وهو الباطن جميع الأشياء، فلا شيء أقرب إلى شيء منه».[6] ويقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾.[7] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿كانَ اللَّهُ ولَمْ يَكُنْ شيءٌ قَبْلَهُ﴾. وفي رواية: ﴿كانَ اللَّهُ ولَمْ يَكُنْ شَيءٌ غَيْرُهُ﴾.[8] فالرواية الأولى أثبتت أولية الله تعالى المطلقة وأسبقيته

---

1 . **الأنعام**: 19
2 . **الشورى**: 11
3 . **صحيح البخاري**
4 . **غافر**: 20
5 . **الحديد**: 3
6 . **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**. ج 22 ص 385، دار هجر، مصر، ط 1/ 1422-2001
7 . **البقرة**: 21
8 . **صحيح البخاري**

على كل شيء، والرواية الثانية أثبتت تفرده بالوجود الأزلي لا شريك معه فيه، والروايتان تؤكدان على أن الأشياء لها بداية، بغض النظر متى كانت هذه البداية في الخط الزمني في جهة الماضي.

رابعاً؛ الله تبارك وتعالى له الأسماء الحسنى والصفات العلى، لم يزل متسمياً بها ومتّصفاً بها، قبل أن يخلق الأشياء، وبعد أن خلقها. ولهذا، لم يكتسب سبحانه بخلقه المخلوقات اسماً لم يكن متسمّياً به، ولا صفة لم يكن متّصفاً بها. وإذ كان الأمر كذلك، فلا أحد من الخلق يمكنه أن يحيط علماً بعدد هذه الأسماء والصفات، لأنها فرع كمال الذات الإلهية المقدسة. ولهذا قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾.[1] الألف واللام تدل على أنها في غاية الحسن والكمال والجلال، وأيضاً تدل على تفرد الرب بها دون سائر خلقه، فلا أحد له شيء من هذه الأسماء والصفات على جهة الكمال، قال البقاعي في تفسيره عند هذه الآية: «أيْ صِفاتُ الكَمالِ الَّتِي لا يَصِحُّ ولا يُتَصَوَّرُ أنْ يَشُوبَها نَقْصٌ ما، بَلْ هو مُتَّصِفٌ بِها دائِمًا اتِّصافًا حَقِيقِيًّا لا يُمْكِنُ انْفِكاكُهُ، كَما يَكُونُ لِغَيْرِهِ مِنَ الاتِّصافِ بِبَعْضِ المحاسِنِ في بَعْضِ الأحايِينِ ثُمَّ يَعْجِزُ عَنْهُ في وقْتٍ آخَرَ أوْ بِالنِّسْبَةِ إلى زَمانٍ آخَرَ».[2] ومن هنا، فأسماء الله وصفاته من أعظم المسالك لمعرفته تبارك شأنه، ولهذا قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.[3] فهذا التسبيح الكوني العام يعكس هذا المعنى، ثم يبقى لكل نوع من أنواع المخلوقات نصيبها من ذلك، فتعرّف الملائكة على كمال الرب من خلال أسمائه وصفاته عبر مظاهرها في الوجود، ليس كتعرّف البشر والجن، وتعرف الأنبياء ليس كتعرف غيرهم.

✓ **خامساً**؛ كان الله تعالى ولم يكن شيء قبله، ولم يكن شيء معه، ثم بدأ في خلق الخلق حسب مشيئته الأزلية، وحكمته القديمة، كما شاء، وكيف شاء. ولهذا فالرب سبحانه غني عن المخلوقات والأشياء كافة لاتصافه بالكمال المطلق والعظمة اللامتناهية، كما قال سبحانه: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾.[4] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾.[5] وقد قرن الحمد والغنى للتنبيه ــوالله أعلمــ على أنه محمود في غناه المطلق عن الخلق والأشياء، أي إن غناه عنهم غنى بحق، إذ قد يتظاهر المخلوق بالغنى عن غيره، لماله أو قوته أو سلطته أو شهرته، لكنه غنى بالباطل وليس

1 . **طه**: 8
2 . **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**. ج 12 ص 270، دار الكتاب الإسلامي، مصر، 1389-1969
3 . **الحشر**: 24
4 . **لقمان**: 26
5 . **فاطر**: 15

بالحق، إذ الذي يدّعي ذلك لا يكون إلا وهو في نفسه معجباً، ومتكبراً، ومغروراً، من أجل أن الإنسان بطبعه محتاج لغيره، وأما الرب سبحانه فليس كذلك. وحتى العبادة التي كشف سبحانه أنه خلق الإنس والجن لها: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.[1] قد بيّن سبحانه أنه في غنى عن ذلك: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾.[2] لأن تلك العبادة لمصلحة العبد، ونفعها يعود عليه في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.[3] وبناء على كل هذا، فالله سبحانه لو شاء ألا يخلق شيئاً لفعل، وما كان ذلك لينقص من كماله وعظمته شيئاً، والظن بأنه سبحانه حصل له كمال بخلقه الخلق لم يكن له قبل خلقه، هذا الظن كفر.

سادساً؛ العالم كله ملك لله تعالى، ومحل سلطانه، فلا شيء من الخلق: الملائكة، الجن، الإنس، السماوات وما فيها، الأرضين وما فيها، وغير ذلك مما لا يعلمه إلى الخالق، لا شيء من ذلك، ذرة ــ بل أدنى ــ فما فوقها يخرج عن ملكه وسلطانه سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾.[4] لأن القول بغير ذلك، يتعارض مع القول بأن الله تعالى هو الخالق، ومالك كل شيء. ونتيجة لهذا، يجب أن نقرر هنا بأنه سبحانه قيّوم على كل شيء، كما قال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾.[5] قال الواحدي في تفسيره عند هذه الآية: «"الله لا إله إلاّ هو الحي" الدّائم البقاء، "القيوم" القائم بتدبير أمر الخلق في إنشائهم وأرزاقهم، "لا تأخذه سنة" وهي أوّل النُّعاس، "ولا نوم" وهو الغشية الثَّقيلة، "له ما في السماوات وما في الأرض" مِلكاً وخلقاً».[6] وهذه القيّوميّة تستلزم أن تدبير الله تعالى لشؤون الخلق تدبيراً في غاية الإتقان والإحكام والدقة والصلاح، بحسب ما اقتضته حكمته الأزلية، ولهذا استأثر سبحانه بعلم القضاء والقدر، لأنه يراعي شبكة من الحِكَم والمصالح في غاية التعقيد والاتساع والامتداد يستحيل على عقول الخلق الإحاطة بها.

سابعاً؛ إثبات كون الله تعالى متصفاً بصفات الكمال المطلق، وأنه خالق العالم والكائنات والأشياء، هذا الإثبات تترتب عليه نتيجتان في غاية الأهمية، الأولى منهما في هذا المعلَم هي استحقاقه تبارك شأنه

---

1 . **الذاريات**: 56
2 . **إبراهيم**: 8
3 . **العنكبوت**: 6
4 . **النساء**: 126
5 . **البقرة**: 255
6 . **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**. ج 1 ص 182، دار القلم، ط 1/ 1415-1995

للعبادة. قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾.[1] وقال تبارك شأنه: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾.[2] ولأن هذا الحق أصيل في منظومة حقوق الله تعالى على عباده، فقد كشف القرآن أن كل الأنبياء دعوا أقوامهم للقيام به: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾.[3] ولهذا أورد على لسان جماعة منهم قولهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾.[4] وقد رتّب القرآن استحقاق الله تعالى للعبادة لكونه خالق كل شيء: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾.[5] ولهذا توعد من يشرك به شيئاً بصرف هذا الحق إلى أحد من الخلق: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.[6] والعبادة قسمان، باطنة وهي المتعلقة بالقلب، ويدخل فيها المحبة والتوكل والخوف والرجاء وغير ذلك، وظاهرة وهي المتعلقة بالجوارح، ويدخل فيها الركوع والسجود والصلاة والصيام والحج وغير ذلك. فالرب سبحانه هو وحده المستحق لذلك كله.

ثامناً؛ النتيجة الثانية التي تترتب على ما ذكرنا من الإقرار والإثبات لله سبحانه، هي استحقاقه جل جلاله للحكم والتشريع، فهو تبارك شأنه الذي له الحق في وضع منظومة الأحكام التي تضبط نشاطات الناس بمختلف مظاهرها وعلاقاتها واتجاهاته. وهذا الحق يستند على مجموعة من المرتكزات، من أهمها: مستند كونه سبحانه الإله الخالق، ومعلوم في بدائه العقول أن الصانع أحق بصنعته. وهناك مستند كونه سبحانه عليم بالإنسان وتركيبته، وبلا شك فإن وضع منظومة التشريع يتطلّب العلم المفصل بمن يُشرّع لهم. وهناك مستند كونه سبحانه أعلم بمآل الإنسان بعد الموت، وفي الآخرة لا يوجد إلا الجنة أو النار، فمن الطبيعي أن يضع الرب تعالى منظومة التشريع التي تهدي إلى الجنة وتعصم من النار. وهناك مستند كونه سبحانه يحب أن يكون عبده عبداً له خالصاً في شؤونه كافة، وبلا شك فإن أعظم مظاهر ذلك هو الحكم والتشريع. وهناك مستند كون الحكم والتشريع من مقتضيات أسمائه سبحانه وصفاته، وهو جل جلاله يحب أن يرى آثار أسمائه وصفاته في العالم حسب استعداداته وقابلياته. فمن أجل هذه المستندات _وغيرها_ استحق الله سبحانه التفرد بالحكم والتشريع، وكان هذا من أعظم لوازم التوحيد وحقوق الإيمان.

---

1 . **البقرة**: 21
2 . **النساء**: 83
3 . **النحل**: 84
4 . **هود**: 61
5 . **الأنعام**: 102
6 . **الزمر**: 67

أتصور أن هذه المعالم الثمانية ترسم للقارئ خارطة واضحة لسؤال: من ربك؟

وأختم هنا بالتنبيه على لطيفة، وهي:

لما كان سؤال من ربك؟ سؤالاً عظيماً، تترتب عليه مجموعة كبيرة من الآثار في حياة الإنسان في عالم الدنيا، وفي حياته في عالم البرزخ، ثم في حياته في عالم الآخرة، لا عجب أننا نجد القرآن قد أولى عناية بالغة وأهمية كبيرة لهذا السؤال الكبير. ومن هنا فقد قدّم القرآن عرضاً تفصيلياً للتعريف بالله تعالى، من حيث ذاته، ومن حيث أسماؤه وصفاته، ومن حيث حقوقه على الخلق، بحيث نستطيع أن نقول بجزم ويقين: لو اجتمعت أرقى عقول الإنس والجن على أن يقدموا تعريفاً شاملاً، ومتكاملاً، ومحيطاً بالله تعالى لما استطاعوا أن يبلغوا مستوى التعريف الذي قدّمه القرآن ولا يكادون، من أجل أن الله تعالى غيب بالنسبة للخلق، وإنما وضع سبحانه في عقولهم من معرفته أصول ما يناسب فطرتهم، أما التفاصيل فهذا لا تستطيع العقول بلوغه إلا بضروب من التخمين والحدس والقياس، مما يوقعها في كثير من الخبط والخلط والقصور. وآية هذا، ما نراه في تاريخ المعتقدات بين شتى الشعوب والأديان الوضعية والفلسفات البشرية. وهذا يحرّكك لمعرفة الضلال المبين الذي كان عليه جملة من المتكلمين والفلاسفة المنتسبين للإسلام حين اعتقدوا أن معرفة الله تعالى لا تُنال من الوحي، كما قال إمامهم ابن سينا: «لم يرد في القرآن من الإشارة إلى هذا الأمر المهم شيء (يقصد توحيد الفلاسفة) ولا أتى بصريح ما يحتاج إليه من التوحيد بيان مفصل، بل أتى بعضه على سبيل التشبيه في الظاهر، وبعضه تنزيهاً مطلقاً جداً لا تخصيص ولا تفسير له، وأما أخبار التشبيه فأكثر من أن تحصى، ولكن القوم لا يقبلوها».[1] وما ذكره ابن سينا ذكره غيره وشددوا عليه! وبهذا الوهم الكبير والجهل الشنيع بالوحي حرموا أنفسهم فيوضات نورانية هائلة ترتقي عالياً بصاحبها في مدارج القرب من الله تعالى.[2]

---

1 . **الأضحوية في المعاد**. ص 97. دار شمس تبريزى، إيران، ط 1/ 1382

2 . للتفصيل انظر إن شئت: «**موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة**». تأليف سليمان الغصن. و«**منهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل للنقل**». تأليف جابر أمير، وغيرها من الدراسات التي تناولت منهج المتكلمين.

الفصل السابع:

سؤال: مَا دينك؟

مَا دينك؟ هذا هو السؤال الثاني الذي يُمتحن به الميت في القبر. وكما ورد في الحديث المذكور سابقاً، فإن جواب المؤمن هو "ديني الإسلامُ"، وأما جواب المنافق أو الكافر فهو "هاه هاه، لا أدري!".

وكما ترى؛ فإن الجوابين معاً يعبران في الحقيقة عن الموقف المعرفي من الدين! فجواب المؤمن في القبر يعكس موقفه الجاد والمسؤول من اختياره للدين الذي يضبط شخصيته وحياته في الدنيا، وأما جواب المنافق أو الكافر في القبر فيعكس موقفه اللامبالي والحائر والتائه من الدين الذي ينبغي أن يلتزم به!

وأول ما يثير الانتباه في سؤال "ما دينك؟"؛ هو أن الملكين لم يسألا "هل كنت تلتزم بدين معين؟"، وهو السؤال الذي يظهر بادي الرأي، السؤال أكثر منطقية! وإنما سألا "ما دينك؟"!

يمكن أن نفهم من ذلك؛ الدلالة على أن الإنسان كائن متدين بالفطرة، أي لابد له من دين يتّبعه، هذا الدين يرسم له طريق حياته، ويحدد له إطار نشاطاته، ويضبط له بوصلته في التفكير والقناعات والأهداف. ومن هنا؛ فالملكان بهذا السؤال "ما دينك؟" يتجاوزان سؤال "هل تتديّن بدين؟" الدال ضمناً على إمكان خلو الإنسان عن التدين بدين معين، وهذا عكس دلالة سؤال "ما دينك؟" الذي يشير إلى نفي هذه الإمكان، بل يشير إلى أن التدين حقيقة مسلّمة في الطبيعة البشرية!

إذا صح هذا الاستنتاج، ويبدو _والله أعلم_ أنه صحيح، فإن صيغة سؤال الملكين توافق نظرة الوحي لتاريخ الإنسان، كما أنها توافق واقع الإنسان عبر التاريخ. فقد قرر القرآن أن الله تعالى ما زال يبعث في الأقوام البشرية من الأنبياء وينزل فيهم من الشرائع ما أقام به الحجة عليهم. ووجود الأنبياء حقيقة تاريخية،

وإجماع بشري لا يمكن التشكيك فيه. يقول الحق تبارك شأنه: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾،[1] وقال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾،[2] وقال جل جلاله: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾.[3]

ونفهم من السؤال أيضاً؛ أن هناك جواباً محدداً، هو المعيار الثابت في أن يكون القبر روضة من رياض الجنة أو أن يكون حفرة من حفر النار. ومن هنا، فالدين الذي ينبغي أن يقال جواباً للسؤال هو دين معين ومحدد، وليس أي دين، فيكون الأمر سقوطاً في النسبية الهلامية بلا معايير ولا ضوابط! هذه الحقيقة، حقيقة أن الدين الحق له صفات معينة ومعايير محددة، هي التي يجهلها المشركون والملحدون على مر التاريخ، فوقعوا بذلك في أنواع الشرك، وألوان الكفر، وأصناف الجحود، والإنكار!

بعد هذه المقدمة المقتضبة، نأتي للتعريف بالدين الحق، أي بالإسلام، فأقول وبالله التوفيق:

أولاً؛ الإسلام هو دين الله تعالى الذي ارتضاه لعباده على مر التاريخ، وإلى يوم القيامة، كما قال سبحانه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾.[4] وقد أثبتت جملة من الآيات أن دين الأنبياء كافة هو الإسلام، كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾،[5] وقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾،[6] وقوله: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ. فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾،[7] وغير هذا من الآيات. والمقصود الإشارة إلى أن الإسلام هو دين الأنبياء كافة، وهو الدين الذي رضيه الله تعالى للناس، أي في عقائده، وقيمه، وأصول تشريعاته. فأما العقائد والقيم فهي شيء ثابت في النبوات كلها رغم تباين الزمان والمكان، وأما التشريع والأحكام، فهي واحدة في أصولها ومقاصدها، مختلفة في جزئياتها وتفصيلاتها بسبب اختلاف الزمان والمكان.

ثانياً؛ بناء على ما سبق، فإن الله تعالى لا يقبل إلا الإسلام من بين الأديان كافة، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾،[8] فكل مَن تعبد لله بغير الإسلام منذ بعثة النبي محمد صلى الله

---

1 . **فاطر**: 24
2 . **البقرة**: 213
3 . **النحل**: 36
4 . **المائدة**: 3
5 . **آل عمران**: 67
6 . **يونس**:84
7 . **الذاريات**: 36
8 . **آل عمران**: 19

عليه وسلم، وقد بلغه الإسلام، فتعبده باطل لا يُقبل عند الله، ولهذا فإنه يوم القيامة يكون من أصحاب الخلود في النار، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿والذي نفْسُ محمدٍ بيدِهِ، لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمةِ: لا يهودِيٌّ، ولا نصرانِيٌّ، ثُمَّ يموتُ ولم يؤمِنْ بالذي أُرْسِلْتُ به، إلَّا كان من أصحابِ النارِ﴾،[1] كما أنه صلى الله عليه وسلم قرر بأن الجنة لا يدخلها إلا المسلم: ﴿إنَّ الجنَّةَ لا يدخُلُها إلَّا نفسٌ مُسلِمةٌ﴾،[2] وهذا يبدو منطقياً، فإذا كان دين الله والأنبياء كافة هو الإسلام، إذن فلن يُقبل من أحد إلا الإسلام، فمَن تعبد بدين آخر ومات عليه، حتى وإن ادعى الانتساب لنبي من الأنبياء فليس له عند الله تعالى عهد بالجنة، لأنه لم يتعبّد له بما ارتضاه، بل بما ارتضاه هواه. واليوم هناك محاولات مكثفة لتمييع الحدود بين الإسلام وغيره، وأن الجميع طرق تؤدي كلها إلى الله وإلى الجنة، ولا شك أن هذه الدعوة كفر وردة.

ثالثاً؛ بناء على ما سبق؛ فإن الإسلام مفصّل تفصيلاً دقيقاً على ما يناسب الغاية من وجود الإنسان التي قرّرها الخالق بنفسه بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾،[3] هذه الغاية الشريفة استوجبت أن يتضمن الإسلام أربع مجالات: الأول، التعريف بالمعبود، فقد قدّم الإسلام تعريفاً مفصلاً حول الله تعالى، من حيث ذاته وأسماؤه وصفاته، ومن حيث صلته بالإنسان والعالم. الثاني، التعريف بالعابد، فقد قدّم الإسلام تعريفاً دقيقاً لحقيقة الإنسان، من حيث أصله، وتركيبته، ومن حيث دوره في صناعة التاريخ، والهدف الذي وُجد لأجله. الثالث، التعريف بالطريق إلى المعبود، فقد قدّم الإسلام بياناً شاملاً للطريق المؤدي إلى رضا الرب تعالى، والطريق المؤدي إلى غضبه وسخطه. الرابع، التعريف بالمصير بعد الموت، فقد قدّم الإسلام صورة واضحة المعالم لمصير الإنسان الأبدي بعد الموت، فالمؤمن الصالح في الجنة أبداً، والكافر المشرك في النار أبداً. ولهذه المعطيات، ذكر الله تعالى أنه أنزل الوحي بالحق: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾،[4] وقال ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.[5]

رابعاً؛ بناء على ما سبق، فإن الإسلام يتسم بمجموعة من الخصائص والسمات، من أبرزها: الشمول، والمقصود أن الإسلام شامل في أحكامه وتشريعاته للذكر والأنثى، وللفرد والمجتمع، وللحاكم والشعب. ومن أبرزها أيضاً: التوازن، والمقصود أن الإسلام يتضمن منهجاً متوازناً بين الجسد والروح، وبين

---

1 . **صحيح مسلم**
2 . **صحيح البخاري**
3 . **الذاريات:** 56
4 . **النساء:** 105
5 . **الإسراء:** 105

الدنيا والآخرة، وبين تلبية الاحتياجات وضبطها. ومن أبرزها أيضاً: الواقعية، والمقصود أن الإسلام يتعامل مع الإنسان كما هو بغرائزه وطموحاته وآماله وهواجسه، فيأخذ ذلك كله بالاعتبار في مبادئه وأحكامه. ولهذا قرر الله تعالى أن القرآن يهدي إلى الحق والهدى والرشاد: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾،[1] فهذه الهداية القويمة، شاملة لكل شيء يتعلق بالإنسان والغاية من وجوده. ومن هنا، فإن الالتزام بمنهج الإسلام في الحياة الخاصة والعامة يحقق الاستقرار والسعادة والتماسك والنجاح.

خامساً؛ بناء على ما سبق، فإن من الطبيعي أن يكون الإسلام ديناً صالحاً ومصلحاً لأفراد النوع الإنساني في كل زمان ومكان إلى يوم القيامة. لأن الله تعالى أنزله ليكون دين الإنسان إلى يوم القيامة، بغض النظر عن الزمان والمكان والعادات والثقافات عند هذا وذاك. ولهذا قرر سبحانه رضاه بالإسلام للخلق: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾،[2] وهذا ما يعني أن باب تواصل الخلق بالخالق قد أغلق إلى يوم القيامة إلا باب الإسلام. لأن غرض النبوة هو تعريف الخلق بالحق، فلما كان الإسلام قد احتوى على التعريف بالحق إلى الغاية القصوى، سواء في الاعتقادات أو في التشريعات، فلا معنى إذن لتكون هناك نبوة جديدة بعد نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وشريعة جديدة بعد الشريعة التي جاء بها. ولهذا حكم الله تعالى على من يرفض الانتماء للإسلام أو يرفض شرائعه بالكفر والشرك والظلم: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾،[3] وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾،[4] وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.[5]

سادساً؛ بناء على ما سبق، فإن الأحكام الشرعية التي جاء بها الإسلام شاملة لكل أفعال الإنسان، وشتى نشاطاته، سواء في المجال الخاص أو في المجال العام، فلا شيء يخرج عن أن يكون له حكم معين في الشرع، إما بالوجوب، أو بالحظر، أو بالاستحباب، أو بالكراهة، أو بالإباحة. ولهذا ما زال الله تعالى يأمر باتباع القرآن والسنة، كما في قوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾،[6] وقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ

---

1 . **الإسراء**: 9
2 . **المائدة**: 3
3 . **المائدة**: 44
4 . **المائدة**: 45
5 . **المائدة**: 47
6 . **الأعراف**: 3

رَّحِيمٌ﴾،[1] والاتباع شامل للعقائد والأحكام والآداب. وسر شمول الشرع لكل تصرفات الخلق يرجع إلى: أولاً، العبد مخلوق في الدنيا للتكليف والمسؤولية، وهذا يقتضي أن تكون أفعال العبد كافة مشمولة بأحد الأحكام الخمسة المذكورة آنفاً. ثانياً، العبد مخلوق للآخرة، ومصيره فيها يتحدد على حسب التزامه بما يحب الله ويرضى، وهذا يقتضي أن تكون أفعال العبد كلها داخل تحت حكم شرعي معينة.

سابعاً؛ بناء على ما سبق، فإن رفض أحكام الشرع أو التشكيك فيها، بأي مبرر يمكن أن يقال، وتحت أية ذريعة يمكن أن تُعرض، هو كفر وردة. وقد نفى سبحانه الإيمان عمن رفض اتباع الشرع والخضوع لأحكامه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾،[2] فتأمل كيف أن الأمر لا يقتصر على عدم تحكيم الشرع، بل أيضاً مع وجود الحرج في النفس من الأحكام الشرعية، كأن يظن أنها ظالمة أو غير لائقة أو لو كان غيرها لتفادي الحرج أمام الشعوب الأخرى أو غير ذلك، كما هو حال بعض المنتسبين للإسلام اليوم. وسر هذا التشديد والتوكيد على ضرورة الخضوع للشرع، يرجع إلى أن مراد الرب تعالى من العبد أن يكون عبداً له اختيارياً كما هو عبد له اضطراراً، وهذا لا يتحقق إلا إذا خضع للشرع في نشاطات حياته كافة ومجالاتها المختلفة وعلاقاتها المتنوعة. ومن هنا، فإن رفض الشرع واستبداله بمنظومة قوانين علمانية هو واقعاً شرك ونقض للتوحيد ومنازعة لله في حق مركزي من حقوقه وهو حق التشريع. وبالإضافة إلى هذا، فإن رفض الشرع أو التشكيك فيه يتضمن اتهام الله ورسوله بالكذب، والظلم، لأن القرآن والسنة أخبرا أن الشرع حق وصدق، وهدى ونور، ورحمة وكرامة.

ثامناً؛ بناء على ما سبق، فإن معرفة أحكام الإسلام في تفاصيل الحوادث وجزئيات الوقائع ليست مفتوحة المصادر، بحيث يكون لكل إنسان أن يقرر الحكم الشرعي في هذه الواقعة أو تلك، أو أن يُسقط حكماً ثابتاً أو يبتدع حكماً جديداً حسب الهوى والتشهي، وهذا ما يجتهد فيه منافقون وزنادقة في هذا العصر باسم تجديد الإسلام والعودة إلى روح الشريعة ومقاصدها لتتناسب مع التطورات المعاصرة! وما من شك في هذا المسلك غرضه الأقصى هدم الإسلام ونقض الشرع باسم الإسلام والشرع! ومن هنا، فإن مصادر الأحكام الشرعية محصورة عند علماء الأمة في القرآن والسنة والإجماع والقياس المعتبر. يقول الحق تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى

---

1 . **آل عمران**: 31

2 . **النساء**: 65

ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾.[1] وبهذا ما زال أهل العلم يحددون الحكم الشرعي لكل الحوادث والمستجدات التي لم تكن في عصر النبي صلى الله عليه وسلم، لأن القاعدة هي أن لكل حادثة إلى يوم القيامة لها حكم شرعي معين.

أتصور أن هذه المعالم ترسم للقارئ خارطة واضحة لسؤال: ما دينك؟

وأختم هنا بالتنبيه على لطيفة، وهي:

لما كان سؤال ما دينك؟ سؤالاً عظيماً، تترتب عليه مجموعة كبيرة من الآثار في حياة الإنسان في عالم الدنيا، وفي حياته في عالم البرزخ، ثم في حياته في عالم الآخرة، لا عجب أننا نجد القرآن قد أولى عناية بالغة وأهمية كبيرة لهذا السؤال الكبير. فما زال الله تعالى يؤكد على أنه أنزل هذا الوحي بالحق، وجعله نور وهدى ورحمة وشفاء وفرقان: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ﴾.[2] وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾. [3] وقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.[4] وغير هذا من الآيات. وهذا لكي يبيّن أن الإسلام في الجوانب كلها التي تشكل منظومته، حق كله، وصدق كله، وعدل كله، وحكمة كله، ولا يزيغ عنه إلا مَن سفه نفسه واتّبع هواه. والله الموفق

---

1 . **النساء**: 59

2 . **البقرة**: 119

3 . **النساء**: 105

4 . **النحل**: 64

الفصل الثامن:

سؤال: من نبيك؟

السؤال الثالث الذي يمتحن به الميت في قبره، هو الموقف من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فيقال: «ما هذا الرَّجلُ الَّذي بُعث فيكم؟»، فأما المؤمن فيقولُ: «هو رسولُ اللهِ. فيقولان له: وما علمُك؟ فيقولُ: قرأتُ كتابَ اللهِ فآمنتُ به وصدَّقتُ». وأما المنافق والكافر فيقولُ: «هاه هاه، لا أدري!».

وكما ترى؛ فإن الجوابين معاً يعبران في الحقيقة عن الموقف من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم! فجواب المؤمن يعكس تعامله مع هذه النبوة بمسؤولية، ولهذا فقد بحث في شأنها فآمن عن علم، وأما جواب المنافق والكافر فيعكس موقفه العابث وعدم تعامله بمسؤولية مع الموضوع!

وسؤال الملكين عن الموقف من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم يتضمن معنى آخر،[1] وهو الإشارة إلى ضرورة النبوة في واقع الحياة البشرية، فلولا هذه الأهمية والضرورة لما يترتب عليها من مصير العبد بعد الموت وفي الآخرة، إما الجنة أو النار، لولا هذا المعنى، لما كان يمكننا أن نفهم سر سؤال الملكين عن الموقف من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم باعتباره آخر الأنبياء إلى البشر!

وضرورة النبوة وأهميتها تتجلى في كونها الوسيلة الوحيدة التي يتواصل بها الخالق مع خلقه لتحديد مراده منهم في إطار الغاية التي خلقهم لأجلها في هذه الدنيا. والنبوة بهذا الاعتبار منظومة تفسيرية وبيانية للإنسان حول: الله جل جلاله، ودور الإنسان في الحياة، والإطار الذي يجب أن يمارس فيه الغاية المطلوبة منه، والمصير المحتوم الذي ينتظره بعد الموت، جزاء له على مدى قيامه بمراد الحق منه.

---

1 . أشرت في فصل علة الأسئلة الثلاثة إلى أن السؤال عن الموقف من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، يُسقط دعوات وحدة الأديان، والديانة الإبراهيمية التي يروج لها في هذا العصر.

من أجل ذلك؛ ما زال الله تعالى يبعث أنبياءه ليبلغوا شرائعه للناس: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾،[1] وقوله: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾،[2] وقوله: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾.[3]

بعد هذه المقدمة المختصرة، نأتي للتعريف بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فأقول وبالله التوفيق:

أولاً؛ لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم خلال حياته ما قبل النبوة يتشوّف للنبوة، ولا كانت منه على بال. لقد بقي في قومه قبل النبوة أربعين عاماً لم يكن خلالها أكثر من فرد من أفرادهم، ولو أن شيئاً من أمر النبوة والطموح إليها كان له حظ من نفسه الشريفة لكان قد ظهر عليه ذلك خلال تلك المدة المديدة، خصوصاً أنه صلى الله عليه وسلم كان على علم واضح أن مكانته الأخلاقية والسلوكية عند قومه في المستوى الأسنى والمرتبة الأعلى، فقد كان يلقبونه بالأمين. وهذا ما أخبر به القرآن: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾،[4] وهذا الأمر ينسجم مع حقيقة أن النبوة هبة إلهية خالصة، فالله تعالى يصطفي لها من يشاء من عباده بدون رغبة من الشخص فيها ولا طموح إليها: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.[5]

✓ **ثانياً**؛ النبي محمد صلى الله عليه وسلم هو آخر الأنبياء وخاتم المرسلين، فلا نبي بعده إلى يوم القيامة، كما قال الله سبحانه: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾،[6] وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿مَثَلي ومَثَلُ الأنْبياءِ مِن قَبْلي كَمَثَلِ رَجُلٍ ابْتَنى بُنْيانًا فأحسَنَه وأكمَلَه، إلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِن زاوِيَةٍ مِن زواياه، فجعَلَ النَّاسُ يَطيفون به ويَعْجَبون منه، ويَقولون: ما رأَيْنا بُنيانًا أَحسَنَ مِن هذا، إلَّا مَوضِعَ هذه اللَّبِنَةِ، فكُنتُ أنا تِلْك اللَّبِنَةَ﴾،[7] وسر ختم النبوة بمحمد صلى الله عليه وسلم، هو البشرية في سابق الزمان كانت تعيش تباعداً جغرافياً، ومن ثم، تحديات ومشاكل

---

1 . **النحل**: 36
2 . **النساء**: 165
3 . **البقرة**: 213
4 . **الشورى**: 52
5 . **الأنعام**: 124
6 . **الأحزاب**: 40
7 . **صحيح مسلم**

اجتماعية مختلفة، فناسب في حكمة الله تعالى أن يبعث في كل قوم نبياً على حدة، ولما سبق علم الله الأزلي بأن البشرية بين يدي الساعة ستتقارب جغرافياً، وتتحد تحدياتها ومشاكلها، ناسب في حكمة الله تعالى أن يختم النبوة بنبي يُنزل عليه شريعة تتضمن من القواعد والأصول والمبادئ والمقاصد ما يحقق أهداف النبوة في نفسها في الأمم البشرية، وبذلك لن تكون هناك حاجة لنبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم.

✓ **ثالثاً**: المعجزة الكبرى للنبي صلى الله عليه وسلم هي القرآن. هذه المعجزة ليست محدودة بزمان حياته صلى الله عليه وسلم كما كان شأن معجزات الأنبياء السابقين، بل هي ممتدة عبر خط الزمن إلى يوم القيامة. وسر ذلك _والله أعلم_ هو أن نبوته هي خاتمة النبوات، فبقاء معجزته عبر الأجيال المستقبلية بمثابة بقائه صلى الله عليه وسلم حيّاً إلى يوم القيامة يعرض على الخلق معجزته على صحة نبوته. والسمة الثانية لهذه المعجزة، هي أن القرآن نفسه نظام الدين الذي جاء به صلى الله عليه وسلم، وهذا عكس ما كان من شأن الأنبياء السابقين، فقد كانت معجزاتهم منفصلة عن شرائعهم التي يجيئون بها إلى أقوامهم. وسر ذلك _والله أعلم_ أنه لما قضى الله تعالى أن يكون الإسلام الدين الخاتم إلى يوم القيامة، فقد ناسب في الحكمة أن يتضمن من معاني الإعجاز وآيات الإبداع، في قواعده وأصوله ومبادئه، ليكون صالحاً لتنظيم المجتمعات البشرية إلى يوم القيامة رغم تباعد أقطارها، وتعدد مشاكلها وتحدياتها. ولأجل هذا وصف الله تعالى القرآن بأنه يهدي للتي هي أقوم، وأنه الحق، والنور، والهدى، والفرقان، والرحمة.

✓ **رابعاً**: بناء على كون النبي محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء، فإن نبوته مهيمنة على النبوات السابقة كافة، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾،[1] وهذا يقتضي أن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم هي الفرقان بين الحق والباطل، فكل الأديان بعد بعثته باطلة عند الله تعالى لا يقبل من أهلها عملاً، كما قال سبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.[2] وبهذا نفهم سقوط المكر الذي يُروّج له في هذا الزمان حول ما مسمى "الديانة الإبراهيمية"، فاعتقادها من مسلم يُخرجه من الإسلام قولاً واحداً، لأنه إذا كان يعتقد صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فالوحي قد أخبر ببطلان كل الأديان وإغلاق الباب بين الله تعالى وخلقه إلا باب محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا يفرض عليه رفض وحدة الأديان أو ما يسمى بالديانة الإبراهيمية خداعاً وتزييفاً. وأما إذا قبل هذه الفكرة التي يروج لها هؤلاء، فتلقائياً يكون قد كذّب نصوص الوحي الذي

---

1 . **المائدة**: 48   2 . **آل عمران**: 85

جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، فيكون بذلك مكذباً لنبوة محمد نفسها، وهذا يترتب عليه ولابد الكفر والردة كما قلنا. فلا يستقيم إذن القول بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم والقول بوحدة الأديان.

✓ **خامساً**؛ إذا كان القرآن هو المنظومة النظرية التي تقدم للمسلم الصورة المعرفية للإله والذات والعالم والقيم، فإن النبي محمد صلى الله عليه وسلم هو المنظومة التطبيقية التي تقدم للمسلم الصورة العملية لما ينبغي أن يكون عليه في سلوكياته وتعاملاته وصلاته، بخالقه وبالناس من حوله. قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾،[1] وهذا الوصف بديع جداً، فهو يصوّر النبي صلى الله عليه وسلم على أنه بلغ في الأخلاق مستوى العلو فوقها بحيث لا مزيد عليها، ولهذا وصف أخلاقه بالعظمة. وقالت عائشة رضي الله عنهم وقد سئلت عن خُلق النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿كان خُلُقُه القُرآنَ﴾،[2] ولهذا جعله الله تعالى قدوة للمسلم: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾،[3] وسر هذا، هو أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم لما كان خاتم الأنبياء إلى يوم القيامة، ناسب في الحكمة أن يكون في أخلاقه وقيمه وشخصيته ما يحتوي على إنسانية الإنسان في كل زمان ومكان إلى يوم القيامة، لكي يجد فيها كل فرد من الناس ما يناسبه من الأخلاق الرفيعة والقيم الشريفة والآداب السامية. فالمتزوج يجد فيه نموذج الزوج الناجح، والأب يجد فيه نموذج الأب المثالي، والعابد يجد فيه نموذج العابد الصادق، والسياسي يجد فيه نموذج السياسي الصالح، والعالم يجد فيه نموذج العالم المتقن، إلى غير هذا من النماذج البشرية.

✓ **سادساً**؛ تتأسس نبوة محمد صلى الله عليه وسلم على ركنين اثنين، وهما: القرآن وهو كلام الله تعالى، والسنة وهي كلام محمد صلى الله عليه وسلم. ولهذا، فالقرآن والسنة هما المصدر الأصلي والمركزي للإسلام، بالرغم من أن السنة في حقيقة الأمر هي مذكّرة تأويلية للقرآن، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾،[4] وقال سبحانه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾،[5] وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿ألا إنّي أوتيتُ الكتابَ ومثلَهُ معهُ﴾،[6] وبهذا الاعتبار، فالسنة بوابة القرآن، لأن وظيفة النبي صلى الله عليه وسلم قسمان: الأول، هو تبليغ القرآن كما نزل بحروفه وكلماته وآياته. والثاني، هو بيان القرآن كما يريد الله تعالى ويحب أن يفهمه عباده. وهنا نستطيع أن نفهم

---

1 . **القلم**: 4
2 . **مسند أحمد**
3 . **الأحزاب**: 21
4 . **النحل**: 44
5 . **النجم**: 3-4
6 . **سنن أبي داود**

السر وراء تلك الحملات الرهيبة في هذا الزمان ضد السنة النبوية، وغرضهم من ذلك التمكن من التلاعب بدلالات القرآن كما يحلو لهم بعد أن تيقنوا استحالة محو القرآن! ولهذا فهم تارة يدعون لإسقاط السنة كلها، وتارة يدعون لإسقاط كل ما لا يتوافق مع مقاصد الشريعة حسب فهمهم لهذه المقاصد، وتارة يدعون لإسقاط كل ما لا يتوافق مع العلم والعقل والقيم الإنسانية المشتركة مع الأمم الأخرى! فيجب أن نقرر هنا بأن إنكار السنة بوابة الزندقة، إذ لا يمكن أن يظل المسلم مسلماً وهو ينكر السنة.

✓ **سابعاً**؛ النبي صلى الله عليه وسلهم هو معيار محبة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾،[1] وهذه المحبة لا تدخل في باب الاختيار، فيمكن للمسلم أن يحب النبي صلى الله عليه وسلم، ويمكن ألا يحبه، بل القدر الذي يصحح إسلام العبد وإيمانه فرض واجب، ثم يبقى المجال مفتوحاً للتنافس في الترقي في مدارج هذه المحبة. وسر ذلك، هو أن محبة النبي صلى الله عليه وسلم فرع محبة الله تعالى، ومحبة الله تعالى من صميم العقيدة، فلا يمكن أن يقال "أنا مؤمن بالله لكن لا أحبه"، فكذلك لا يمكن أن يقال "أنا مؤمن بمحمد نبياً لكن لا أحبه"! ومن هنا نفهم بأن المسلم بقدر ما يلتزم بالعقائد التي جاءت بها السنة، والآداب التي قرّرتها، والقيم التي حددتها، والأحكام التي بيّنتها يكون نصيبه من محبة النبي صلى الله عليه وسلم، كما ورد في الحديث الصحيح: ﴿ثَلَاثٌ مَن كُنَّ فيه وجَدَ حَلَاوَةَ الإيمَانِ: أنْ يَكونَ اللَّهُ ورَسولُهُ أحَبَّ إلَيْهِ ممَّا سِوَاهُمَا﴾،[2] وإذا كانت محبة النبي صلى الله عليه وسلم من صميم الاعتقاد، فإنها تجب له بنظر العقل وحس الفطرة، وذلك أن من أحسن إليك تجد نفسك تميل إليه بالمحبة والتعظيم، وبناء على هذا، فالنبي صلى الله عليه وسلم قد أحسن للعبد غاية الإحسان، فقد بيّن له الطريق إلى الله تعالى، وكشف له معالم الحق، ولم يترك شيئاً يقرّبه من الجنة إلا دلّه عليه، ولا شيئاً يقرّب من النار إلا حذّره منه، فلزم من هذا أن يكون حبه أعظم من حب كل مخلوق آخر، لأن إحسانه ومعروفه صلى الله عليه وسلم أعظم من إحسان ومعروف كل مخلوق آخر.

✓ **ثامناً**؛ على الرغم من مكانة النبي صلى الله عليه وسلم، ووجوب محبته، وضرورة تعظيمه، فإن ذلك كله لا يبرر الغلو في هذه المحبة والتعظيم والمكانة. لقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يذكّر الناس ببشريته: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾،[3] ولهذا، فالنبي صلى الله عليه وسلم

---

1 . **آل عمران**: 31

2 . **صحيح البخاري**

3 . **الكهف**: 110 **فصلت**: 6

لا يملك من الأمر شيئاً: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾،[1] ونهى النبي صلى الله عليه وسلم نفسه عن الغلو فيه، فقال: ﴿لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فإنَّما أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولوا: عبدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ﴾،[2] ولهذا، فالغلو ليس من أمارات حب النبي صلى الله عليه وسلم وتعظيمه، بل من علامات الجهل بقدره، والجهل بمقاصد نبوته. أما قدره، فهو عبدٌ لله تعالى كسائر العباد، وإنما فضل عليهم بالنبوة، وإذا كان ربه تعالى قد وصفه في أعلى مقاماته بالعبودية له سبحانه: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾،[3] فكيف يدعي مسلم أن الغلو فيه صلى الله عليه وسلم من إجلال قدره وتعظيم منزلته! وأما نبوته، فهو صلى الله عليه وسلم جاء بإخلاص التوحيد لله تعالى، وإفراده سبحانه بالتعظيم والإجلال، ونفي أدنى معالم الشرك عنه، حتى إنه صلى الله عليه وسلم اعترض على من أشركه مع الله في لفظ المشيئة، فقد قال له رجل: ﴿ما شاء اللهُ وشئتَ. فقال لهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: أجعلتني للهِ عدلًا بل ما شاء اللهُ وحدَهُ!﴾.[4] فالواجب ــإذنــ الالتزام بمحبته وتعظيمه صلى الله عليه وسلم في الحدود التي يحبها الله ورسوله، وإلا كان الغلو يكون اتّباعاً للهوى!

1 . **الأعراف**: 118

2 . **صحيح البخاري**

3 . **الإسراء**: 1

4 . **مسند أحمد**

الفصل التاسع:

عالم البرزخ

عندما نتحدث عن عالم البرزخ؛ فنحن نتحدث عن حقيقة في غاية الأهمية، وهي أن الإنسان خُلق ليبقى لا ليفنى، فهكذا شاءت حكمة الباري سبحانه. يقول جل جلاله: ﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾،[1] ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾،[2] وقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.[3]

وهذا المعنى ليس حقيقة شرعية وحسب، بل هو قبل ذلك حقيقة من حقائق الطبيعة البشرية، ثابتة فيها ثبات الحقائق الرياضية، وثبات المبادئ العقلية. ومن دلائل ذلك؛ أن الإنسان دائم التواجد في المستقبل، يفكر فيه، ويخطط له، ويحمل همّه، طالباً أن يكون أفضل من واقعه القائم، لأنه دون سائر الحيوان لا يرضى أبداً بواقعه، بل هو دائم التطلع للمستقبل الأفضل والأجمل والأرقى والأسنى!

إذن؛ لقد خلق الله تبارك شأنه الإنسانَ للبقاء الأبدي والخلود السرمدي، لكن، شاءت حكمته السامية ألا يخلقه فيه مباشرة، بل يخلقه أولاً في عالم موسوم بالفناء والزوال والانتهاء، ليكون هذا المخلوق هو نفسه يختار الطريق الذي يسلكه إلى عالم الآخرة، فإما الجنة أبداً أو النار أبداً!

ثم؛ إنه سبحانه قضى ألا يخرج الإنسان من الدنيا عند انتهاء أجله فيه مباشرة إلى الجنة أو النار، بل يمر أولاً على عالم يكون برزخاً بين عالمي الدنيا والآخرة، حتى إذا اجتمع فيه كل الخلق الذين سبقت إرادة الله وحكمته بإيجادهم، أحضرهم إلى محكمة الحشر ليتقرر المصير النهائي لكل واحد منهم.

لهذا؛ فعندما يموت الإنسان فهو يدخل عالم البرزخ، فلا هو فيه يستطيع العودة إلى الدنيا، ولا هو يلتحق فيه بمنزلته النهائية في عالم الأبد. قال الحق تعالى: ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ

---

1 . **يونس**: 56

2 . **الأنبياء**: 35

3 . **التغابن**: 3

قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾.[1] فكلمة برزخ في قوله " وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ" تحمل دلالة الحاجز المكاني والحاجز الزماني، أي إن الميّت لا يستطيع اختراق الحاجز المكاني لعالم القبر للعودة إلى الدنيا، كما لا يستطيع اختراق الحاجز الزماني لعالم القبر فلا يمكث فيه إلى يوم القيامة.

بناء على ما تقدم؛ فالحياة البرزخية تبدأ في حق كل إنسان بعد لحظة الموت مباشرة، أي خروج الروح من الجسد، لينضم هذا الميت إلى هذا مجتمع الموتى ينتظر معهم حلول وقت القيامة، بالرغم من أنه عملياً يكون قد دخل عالم الأبدية، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿إنَّ القبرَ أوَّلُ مَنازِلِ الآخرةِ﴾.[2] وطبيعة زمان الانتظار لا يمكننا تصورها، لأن زمان البرزخ ليس كزمان الدنيا.

ولما كان الأمر كذلك؛ أي إن القبر هو أول منازل الآخرة، فإذن هذه المرحلة المتوسطة بين عالمي الدنيا والآخرة، مرحلة غيبية بالنسبة لنا، لا يمكننا أن ندرك بأنظار عقولنا ولا بوسائل علومنا حقيقتها، ولا ما يجري فيها، ولا طبيعة مجالها، ولا ماهية الزمان فيها، فكان لزاماً أن نرجع فيها إلى الوحي المعصوم، نثبت ما أثبت ونسكت عما سكت، وإلا فهي الظنون والتخرصات والأوهام والخيالات!

والمسلم يؤمن بأن الله تعالى هو الحق، وقوله هو الحق، كما يؤمن بأن محمداً رسول الله جاء من عند الله بالحق، ولم ينتقل إلى الآخرة حتى كان قد أدى كل ما كلفه الله تعالى من التبليغ والبيان للناس، قال تعالى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾.[3]

ولهذا، فقبول المسلم للأخبار المتعلقة بعالم الغيب الثابتة في الوحي، وتسليمه لها، واعتقاده بها، كل ذلك ليس من باب القبول الأعمى، كما يريد الزنادقة والمنافقون ترسيخ ذلك في النفوس، بل بالحري أن كل ذلك موسوم بسمة العقلانية الراشدة، إذ كان مؤسساً على مجموعة من الحقائق:

- ✓ **أولاً**؛ الله سبحانه هو الحق لأنه متصف بالكمال المطلق.
- ✓ **ثانياً**؛ الرسول صلى الله عليه وسلم جاء ليبلغ للناس الحق.
- ✓ **ثالثاً**؛ مراد الله ورسوله أن يعرف الناس حقيقة ما هو صائرون إليه.

---

1 . **المؤمنون**: 100

2 . **سنن ابن ماجة**

3 . **النحل**: 44

والنتيجة المترتبة على هذا هي أن أخبار الغيبيات أخبار لا يمكن للنظر العقلي التشكيك فيها، لأنها حق، والحق لا يمكن أن يكون في واقع الأمر متعارضاً مع فطرة العقل، فإذا اعترض معترض، بعد ثبوت الخبر عن الغيب فهو اعتراض ناتج عن سوء الفهم أو اتباع الهوى.

إذن؛ فكل ما ثبت في الوحي من أخبار عالم الغيب، بدءً بلحظات الموت، ثم البرزخ، فالحشر، فالجنة والنار، كل هذا يستحيل أن يتخلله ما يتنافى مع الواقع الحقيقي لهذه المجالات الغيبية، لأن تجويز ذلك ينقض الشهادة لله بكمال الربوبية وعظمة الألوهية، وللنبي بتمام تبليغ الرسالة وإقامة الحجة على الخلق.

لكن؛ كيف يمكن التعامل مع بعض المعطيات الثابتة في الوحي المتعلقة بعالم الغيب، والبرزخ جزء من هذا العالم، مما لا يستطيع بعض الناس استيعابه؟ والجواب: المسلم له أصول ثابتة وهي:

- ✓ **أولاً**؛ استحالة تعارض الوحي الصحيح مع العقل الصريح.
- ✓ **ثانياً**؛ العجز عن الإدراك ليس حجة للنفي والعدم.
- ✓ **ثالثاً**؛ فيزياء عالم الغيب، ومنه البرزخ، تختلف عن فيزياء الدنيا.
- ✓ **رابعاً**؛ لا يمكن أن يوجد في هذه الأخبار ما ينقض مبدأ عقلياً فطرياً.

فالغفلة عن هذه الأصول الأربعة يوقع المرء في الحيرة والدهشة، خصوصاً إذا تعرض كثيراً للشبهات التي يروجها الملاحدة والمنافقون وغيرهم، فإنها تتحوّل عنده إلى حقائق يرد بها أخبار الوحي!

نصل إلى تلخيص عرض العقيدة الإسلامية لعالم البرزخ، فنقول:

أولاً؛ البرزخ عالم مغلق، فمن دخله من الموتى لا يخرج منه عائداً إلى الدنيا، بل يمكث فيه إلى يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.[1]

ثانياً؛ البرزخ أول منزلة من منازل الآخرة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿إنَّ القبرَ أوَّلُ مَنازِلِ الآخرةِ﴾.[2] فمن مات فهو واقعاً قد دخل عالم الأبدية، وإن كان في أول مراحلها.

---

1 . **المؤمنون**: 100

2 . **سنن ابن ماجة**

ثالثاً؛ البرزخ ليس مجالاً ساكناً، بل فيه حياة تناسب طبيعته، تختلف عن طبيعة الحياة في الدنيا، وعن طبيعة الحياة في الآخرة، رغم اختلاف مستويات حياة الموتى فيه. وآية ذلك، أن أهل الإيمان ينعّمون فيه نعيماً يليق بالحياة البرزخية، وأهل الكفر والعناد يعذبون فيه عذاباً يليق بالحياة البرزخية.

رابعاً؛ البرزخ إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، ولا واسطة بينهما، فالمؤمن الصالح بعد السؤال في القبر يقال له: ﴿افتَحوا له بابًا مِنَ الجَنَّةِ، فيأتيه مِن رَوْحِها وطِيبِها﴾. والكافر والمنافق يقال: ﴿افتَحوا له بابًا مِنَ النارِ، فيَأتيه مِن حَرِّها وسَمومِها﴾.[1]

خامساً؛ البرزخ يشمل كل إنسان، فلا أحد يكون بعد موته بمنأى عن شمول أحكام البرزخ له، سواء دُفن كما يُدفن عامة الناس في قبورهم، أو غرق في بحر، أو افترسه سبع، أو غير ذلك. فقدرة الرب لا يحدها شيء. وكوننا لا ندرك كيفية ذلك ولا طبيعته ليس حجة صالحة للنفي بعد أن أثبته الوحي.

سادساً؛ نعيم القبر وعذابه يشمل الروح والبدن، لأن الإنسان إنسان بهما جميعاً، وفي الدنيا ثبت عليه التكليف الإلهي بهما جميعاً، فمن البديهي أن يشمل النعيم أو العذب الروح والبدن جميعاً. وعجزنا عن إدراك طبيعة بدن البرزخ ليس دليلاً، فبدن الجنة أو النار أيضاً ليس كطبيعة بدن الدنيا.

سابعاً؛ أهل البرزخ ليسوا على شاكلة واحدة، بل هم أصناف شتى ترجع إلى ثلاثة: صنف المؤمنين الصالحين، فهؤلاء في نعيم دائم. وصنف المؤمنين العصاة، فمَن عُذب منهم فعذابه لا يدوم، بل منقطع بدعاء أو عفو أو غير ذلك من أسباب رفع العذاب. وصنف الكفار والمشركين فهم في عذاب دائم.

فهذه أهم خصائص عالم البرزخ كما يمكن استنتاجها من معطيات القرآن والسنة، والله أعلم.

ولقد تكلم أهل العلم عن عالم القبر وما يكون فيه. من ذلك قول الشيخ إحسان الكديري: «كل ميّت أراد الله تعذيبه عُذّب، قُبر أو لم يُقبر، ولو صُلب، أو غرق في بحر، أو أكلته الدواب، أو حُرّق حتى صار رماداً وذُري في الريح، ولا يمنع من ذلك كون الميت تفرقّت أجزاؤه. والمعذّب البدنُ والروح جميعاً باتفاق أهل الحق، ويكون للكافر والمنافق وعصاة المؤمنين، ويدوم على الأولين، وينقطع عن بعض عصاة المؤمنين،

1 . **سنن أبي داود**

وهم مَن خفّت جرائمهم من العصاة، فإنهم يُعذّبون بحسبها، وقد يُرفع عنهم بدعاء، أو صدقة أو غير ذلك كما قاله ابن القيم، وكل مَن لا يُسأل في قبره لا يُعذّب فيه أيضاً».[1]

❁ **وهنا سؤال مهم**، وهو: إذا كان القبر إما أن يكون روضة من رياض الجنة، أو أن يكون حفرة من حفر النار، فما هي أسباب كل واحدة منهما؟

والجواب؛ اعلم أن أسباب كون القبر روضة من رياض الجنة ترجع إلى الموت على الإيمان والطاعة، وأما أسباب كون القبر حفرة من حفر النار فترجع إلى الموت على الكفر والنفاق والمعاصي. لأن القبر عبارة عن محكمة صغرى، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿القبرَ أوَّلُ مَنازِلِ الآخرةِ: فإن نجا منهُ، فما بعدَهُ أيسرُ منهُ، وإن لم يَنجُ منهُ، فما بعدَهُ أشدُّ منهُ﴾.[2]

وهنا تبرز مسألة لحظة ما قبل الموت، وهي التي تتعلق بحسن الخاتمة وسوئها، فإن من حسنت خاتمته بالإيمان والطاعة كان قبره روضة من رياض الجنة، ومن ساءت خاتمته كان قبره حفرة من حفر النار. فما هي إذن أسباب حسن الخاتمة وسوئها؟

والجواب: من المفيد مراجعة ما ذُكر في فصل أسباب الثبات عند الممات، لكن يمكن أن أذكر هنا كلمة أخرى فيها ــإن شاء اللهــ فائدة، وهي:

العبد يتحرك في إطار: اعتقاد القلب وعمل الجوارح، وهما إما أن يكونا على مراد الشرع، وإما أن يكونا على غير مراده، ولا يوجد قسم ثالث. والناس في هذين القسمين طبقات شتى!

إذن؛ فسوء الخاتمة مرتبطة بمن مات على اعتقاد فاسد وعمل فاسد، كالإلحاد والكفر والشرك والنفاق، والانغماس في المعاصي وتراكم الذنوب، والمعاداة لله ولرسوله وللمؤمنين، والسعي في محاربة الشرع وأهل الدين والصلاح والتضييق عليهم، والتمكين لأهل الزندقة والانحراف والتيسير لهم، فلا شك أن هؤلاء تكون خاتمتهم سيئة، ومن ثم يكون القبر بالنسبة لهم حفرة من حفر النار. أو بمن مات على اعتقاد صالح في الجملة، لكنه أساء العمل جداً، وغلبت سيئاته حسناته، ومات كذلك، فهذا يخشى عليه!

---

1 . **سراج الطالبين على منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين**. ج 1 ص 138، مكتبة الحلبي، ط 1/ 1374-1955

2 . **سنن ابن ماجة**

وأما حسن الخاتمة فمرتبطة بمن مات على اعتقاد صالح وعمل صالح، والاعتقاد الصالح هو ما تقرر في القرآن والسنة وكان مطابقاً لهما. وأما أصحاب البدع الاعتقادية فهم أصناف: فمنهم المصر على المخالفة رغم تبيّن الحق له، عصبية للمذهب ومناكفة للخصوم، فهذا لا شك أنه على خطر عظيم عند الموت وعلى شفا الهلكة. ومنهم المعروف بتثبته وحرصه على اتباعه الحق والهدى لكنه أخطأ في بعض المسائل، فهو يرجى له المغفرة، بل ــإن شاء اللهــ الأجر الواحد، لأنه اجتهد فأخطأ ولم يتعمد مخالفة القرآن والسنة.

فإن قلت: ما وجه ارتباط الاعتقادات والأعمال بالخاتمة؟

قلت: سر ذلك؛ هو أن الاعتقادات والأعمال لها تأثير قوي في الهيئة الروحية للإنسان، إن خيراً ونوراً فخير ونور، وإن شراً وظلمة فشر وظلمة. ولما كانت لحظة الموت لحظة فاصلة بين الدنيا والآخرة، لا جرم أن كانت لحظة شدة وفتنة، فيُثبّت الله تعالى ــبفضلهــ أصحاب الاعتقاد السليم والعمل الصالح، بتقوية نفوسهم على الثبات في مواجهة تلك الشدة والفتنة، وهذا أول ثوابهم وهم على مشارف الآخرة. ويخذل سبحانه ــبعدلهــ أصحاب الاعتقاد المنحرف والعمل السيئ، بإضعاف نفوسهم عن الثبات في مواجهة تلك الشدة والفتنة، وهذا أول عذابهم وهم على مشارف الآخرة. والله أعلم.

الفصل العاشر

شبهات حول البرزخ

البرزخ يدخل في عالم الغيب، ولهذا، فلا مجال للنظر العقلي فيه فيما يتعلق بالإثبات أو النفي، إذ مجال اشتغال العقل هو ما يتعلق بالتجربة والرصد أو بالخبر الصحيح. ولما كان عالم الغيب لا يمكن تجربته ولا رصده، بقي إذن مصدر واحد لمعرفته، وهو الخبر الشرعي الصحيح.

يترتب على هذا القول، أننا في شؤون الغيب التي يخبر بها الكتاب والسنة باعتبار أنهما _كما قلنا_ المصدر الوحيد لمعرفة هذا الغيب، نلتزم بمبدأين اثنين، وهما:

- **أولاً**؛ لا نثبت إلا ما أثبته الشرع من الغيب.
- **ثانياً**؛ لا نعارض ما أثبته الشرع من الغيب.

وفي الحقيقة؛ نحن بدون الالتزام بهذين المبدأين سنتلبّس بمخالفتين شنيعتين:

✓ **الأولى**؛ مخالفة تعاليم الوحي وقيمه المعرفية. وذلك أن إثبات شيء من شؤون الغيب بدون مصدر شرعي صحيح، قول بغير علم، وقد حرّم الشرع القول بغير علم، قال الحق تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.[1] فهذا توجيه يشمل كل ما ليس لنا به علم، ودخول شؤون الغيب في هذا التوجيه أولى، من أجل أنه لا يعلم الغيب إلا الله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.[2]

✓ **الثانية**؛ مخالفة الإيمان بأن الوحي حق. وذلك أن العقل أثبت لنا أن الوحي حق مطلق، ومن هنا فأخبار الوحي حق يطابق الواقع في نفسه، فإذا رفضنا هذه الأخبار الثابتة، نكون متهمين للعقل بالكذب والضلال في إثباته أن الوحي حق مطلق، ومن ثم نكون متهمين الوحي بالخطأ والكذب، إما في نقل الواقع

---

1 . **الإسراء**: 36 2 . **النمل**: 65

الغيبي في نفسه أو في سوء التعبير عن ذلك: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾.[1] وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾.[2] ولهذا لم يرفض أخبار الغيب إما مطلقاً وإما بتأويلها إلا المبتدعة والزنادقة.

إذا تقرر عندك هذا؛ فلا تبالي بتشغيبات الملاحدة وتلبيسات الماديين، بمختلف اتجاهاتهم حول عالم القبر، فمن الطبيعي أن يعتبروا ذلك مجرد خرافات، وترويجاً للأوهام، لأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، ومن الواضح أن الإيمان بعالم القبر بنعيمه وعذابه ثم الآخرة يتوقف على الإيمان بالله تعالى.

أما إذا تجاوزنا الملاحدة وأصحاب العقيدة المادية، فلابد أن نتوقف عند بعض المنتسبين للإسلام الذين يرفضون أن يكون في القبر نعيم أو عذاب، بل يعتقدون أن القبر سكون مستمر إلى يوم البعث! وهذا الموقف منهم يرجع إلى اتباع الهوى، والمنازعة الخفية للوحي! وبرهان هذا هو:

- ✓ **أولاً**؛ إذا كانوا ينكرون استحالة أن يكون القبر مجالاً للنعيم والعذاب، فهذه الاستحالة إن قالوا لأن الله تعالى عاجز عن ذلك كفروا، كما يلزم عنها القول باستحالة نعيم الجنة وعذاب النار، لأنهما أعظم من نعيم القبر وعذابه. وإن ربطوها بعدم وجود النصوص على ذلك، فهذا القول مجرد دعوى امتزج فيها الجهل والعناد، لأن النصوص موجودة، ولهذا اتفق أهل العلم على القول بنعيم القبر وعذابه.

- ✓ **ثانياً**؛ إذا كانوا ينكرون وجود هذا النعيم والعذاب، لأننا إذا نبشنا القبور لا نرى فيها آثار ذلك، فهذا منهم جهل قبيح لا يصدر إلا ممن لا يؤمن بالله تعالى واليوم الآخر. لأن الأصل أن البرزخ من عالم الغيب، والغيب _كما سبقت الإشارة_ له فيزياء خاصة به تناسب طبيعته الخالدة، ولنا أنموذج صغير وهو الأحلام والرؤى، فأنت ترى النائم ساكناً، لكنه قد يخبرك بأحداث كثيرة رآها في نومه.

- ✓ **ثالثاً**؛ إذا كانوا يحتجون بأن حساب الخلق وجزاءهم إنما يكون يوم الحشر، والقول بوجود نعيم في القبر وعذاب يعني هناك حساب وجزاء! فهذا منهم تعالم على الله ورسوله والأئمة، فكون الحساب والجزاء يكون في الحشر لا ينفي إمكان وجود حساب وجزاء جزئي في البرزخ لما شاء الحق سبحانه من وراء ذلك من الحكمة، وقد أخبرنا الوحي بعذاب أقوام الأنبياء الذين رفضوا اتباعهم، مع ما ينتظرهم في الآخرة.

---

1 . **الإسراء**: 105   2 . **الحج**: 16

✓ **رابعاً**؛ إذا كانوا يعترضون بوجود أناس لم يدفنوا في القبر، بسبب الغرق أو افتراس حيوان أو غير ذلك، فلا يصح أن يدفن في القبر لكي يجري عليه النعيم والعذاب، فمن لم يُدفن لا يجري عليه ذلك! فهذا من جهلهم بقدرة الله تعالى، وبطبيعة عالم الغيب، بل لو صح هذا القول منهم، لوجب عليهم نفي الجنة والنار، لأن هناك أشخاصاً لم يدفنوا في القبور كيف يجري عليهم النعيم والعذاب في الآخرة؟

أما محاولاتهم لتبرير إنكارهم بالآيات القرآنية، فهذا جوابها:

فمن ذلك قولهم: قول الله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾.[1] ينفي وجود عذاب القبر، لأنه لو كان أهل القبور أحياء للنعيم أو العذاب، لذاقوا الموت مرتين، مرة في الحياة الدنيا، ومرة في الحياة البرزخية، ولهذا فلا حياة في القبر التي هي شرط النعيم أو العذاب!

والجواب عن هذا؛ هو أن هذه الآية لا علاقة لها بعذاب القبر أو نعيمه، بل قد جاءت في سياق الامتنان على أهل الجنة بأنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً، بل يظلون أحياء إلى أبد الآبدين، ولهذا سيدوم نعيمهم بلا انقطاع، عكس أهل الدنيا الذين ينقطع نعيمهم بالموت.

وأيضاً؛ فإن الحياة البرزخية _كما سبق التنبيه في فصل عالم البرزخ_ لا تشبه الحياة الدنيا من كل وجه ولا تشبه الحياة الأخروية من كل وجه، بل هي حياة بين حياتين، ولهذا فلا تساوي بين هذه الحياة والحياة الدنيا ليقاس عليها طبيعة الحياة الدنيا وما يكون عليه العبد فيها.

ومن شبهاتهم قولهم: قول الله تعالى ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾.[2] ينفي وجود عذاب القبر، إذ لو كان أهل القبور أحياء للنعيم أو العذاب، لما استقام تشبيه الكفار في عدم السماع بأهل القبور، إذ الآية واردة في نفي سماع الكفار للحق!

والجواب عن هذا؛ هو أن الآية جاءت في مورد بيان موت قلب الكافر فلا ينتفع بالخطاب القرآني والنبوي، كما أن ساكن القبر لا يسمع سماع الوحي لينتفع به، ولا يوجد في الآية نفي مطلق السماع، فقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم خاطب قتلى بدر من الكفار وسمعوا كلامه، فقال: ﴿أيَسُرُّكُمْ أنَّكُمْ أطَعْتُمُ اللَّهَ ورَسولَهُ؛ فإنَّا قدْ وجَدْنا ما وعَدَنا رَبُّنا حَقًّا، فَهلْ وجَدْتُمْ ما وعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟! قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ: يا رَسولَ اللَّهِ، ما تُكَلِّمُ مِن أجْسَادٍ لا أرْوَاحَ لَهَا! فَقَالَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ

---

1 . **الدخان**: 56   2 . **فاطر**: 2

بيَدِهِ، ما أنتُمْ بأَسْمَعَ لِما أقُولُ منهمْ﴾. قَالَ قَتَادَةُ: أحْيَاهُمُ اللَّهُ حتَّى أسْمعَهُمْ قَوْلَهُ؛ تَوْبِيخًا، وتَصْغِيرًا، ونَقِيمَةً، وحَسْرَةً، ونَدَمًا.[1] وأيضاً ثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل مقبرة المسلمين ألقى السلام عليهم، فيقول: ﴿السَّلامُ علَيْكُم دارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وإنَّا إنْ شاءَ اللَّهُ بكُمْ لاحِقُونَ﴾.[2]

ومن شبهاتهم قولهم: قول الله تعالى ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.[3] دليل على عدم وجود نعيم القبر وعذابه، بل يكون ذلك يوم القيامة، ولا تذوق النفوس شيئاً في البرزخ الذي يكون بين حياة الدنيا القصيرة وحياة الآخرة الطويلة.

والجواب عن هذا؛ هو أن هذه الآية جاءت في سياق التعزية والتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بسبب ما يجده من العناد والكفر والافتراء من الذين رفضوا الإيمان به، وأن له قدوة حسنة فيمن خلا من الأنبياء مع أقوامهم، وأن الجميع يرجع إلى الله فيوفيه حسابه وأجره، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وبطبيعة الحال، فإن الآية موجهة للمسلم تبعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم. فالآية _كما ترى_ تتحدث عن توفية الأجر، وهذا بلا شك يكون في الآخرة بدخول الجنة، وهذا يعني بالضرورة وجود أجر جزئي قبل يوم القيامة، أهل النعيم لهم نعيم جزئي، وأهل الجحيم لهم عذاب جزئي، وهذا الأجر الجزئي يكون في الدنيا ويكون في البرزخ، كما أشارت الآية عن النبي إبراهيم عليه السلام: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾.[4] وهذا ليس خاصاً بإبراهيم عليه السلام، بل يشترك في ذلك عامة أهل الإيمان، وأدنى أحوال هذا الأجر الجزئي يكون معنوياً ونفسياً، وذلك هو الحياة الطيبة التي يجدها كل مؤمن بحسب ما معه من الإيمان واليقين. والله أعلم

ومن شبهاتهم قولهم: قول الله تعالى ﴿قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾.[5] نفي صريح لعذاب القبر، إذ لو كانوا يُعذّبون في قبورهم لما صح منهم هذا القول _الذي يحمل معنى الصدمة والدهشة_ عند نشروهم من قبورهم!

والجواب عن هذا؛ هو أن هذه الآية ليس فيها ذكر لعذاب القبر أو نفي له، بل كل ما في الأمر أنها ترسم مشهد الكفار حين البعث للحساب، فإما أن يكون الأمر تعبيراً منهم عن هول الصدمة، والدهشة

---

1 . **صحيح البخاري**
2 . **صحيح مسلم**
3 . **آل عمران**: 185
4 . **العنكبوت**: 24
5 . **يس**: 52

المفزعة، والرعب الشديد، كأن ما كانوا فيه من العذاب في القبر لا يساوي شيئاً مقارنة بما يرونه في أرض المحشر من الأهوال العظيمة، وبالتبع ما ينتظرهم في جهنم، أو إنهم يُرفع عنهم العذاب قبيل البعث ثم يفاجؤون بالبعث لمزيد من العذاب النفسي قبل دخولهم نار جهنم. وبكل هذا قال أهل العلم بالتفسير، وإنما لا يصح غير ذلك، لأن الثابت المتقرر ــ كما سيأتي ــ أنهم يُعذبون في قبورهم. والله أعلم

نصوص حول نعيم القبر وعذابه:

من القرآن الكريم:

✓ قول الله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾،[1] فهذا فيه إثبات عذاب قبل يوم القيامة، فهذه النار التي يُعرضون عليها ليست نار الآخرة، فثبت أنها نار البرزخ.

✓ قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾،[2] فهذا فيه إثبات عذاب القبر، فلولا أن هذا الكافر يرى الأهوال العظيمة مع لحظة نزول الموت لما طلب الرجعة، إذ لو كان ليس هناك شيء لما كان لطلبه معنى ولا فائدة، والله أعلم.

✓ قول الله تعالى عن قوم نوح صلى الله عليه وسلم: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾،[3] فهذا فيه إثبات عذاب القبر مباشرة بعد موتهم غرقاً، إذ معلوم أنهم لم يدخلوا نار جهنم بعد موتهم، فالقيامة لم تقم بعد.

✓ قول الله تعالى عن أصحاب الأخدود الذين أحرقوا المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾،[4] فهذا فيه إثبات عذاب جهنم، وعذاب الحريق، والأول في الآخرة، والثاني قبلها ولم يكن ذلك في الدنيا، فثبت أنه بعد الموت مباشرة، والله أعلم.

---

1 . **غافر**: 46

2 . **المؤمنون**: 99

3 . **نوح**: 25

4 . **البروج**: 10

✓ قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾،[1] فهذا في إثبات العذاب لهم من لحظة الموت، الضرب والحرق، ولا يوجد دليل على توقفه، فثبت أنه مستمر معهم في قبورهم، والله أعلم.

✓ قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾،[2] فهذا فيه إثبات نعيم القبر للشهداء، فهم فيه أحياء، ولا معنى لحياتهم بلا نعيم، وإلا لم يكن لهم مزية على عامة المؤمنين، فضلاً عن الكافرين، كما أن نفيه الشعور عنا بهم دليل نعيمهم في القبر. والله أعلم.

✓ قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾،[3] فهذه الآية صريحة جداً في نعيم الشهداء والمؤمنين في قبورهم.

من السنة النبوية:

✓ قول النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَفِتْنَةِ الْمَمَاتِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ﴾.[4] فهذا دعاء صريح يثبت عذاب القبر.

✓ قول النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّ العَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ لِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، فَأَمَّا المؤْمِنُ، فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الجَنَّةِ، فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا". قَالَ: "وَأَمَّا الْمُنَافِقُ وَالْكَافِرُ فَيُقَالُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَيُقَالُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ، وَيُضْرَبُ بِمَطَارِقَ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ﴾.[5] فهذا الحديث فيه إثبات لنعيم القبر وعذابه.

---

1 . **الأنفال**: 50

2 . **البقرة**: 154

3 . **آل عمران**: 169-171

4 . **صحيح البخاري**

5 . **صحيح البخاري**

ومَرَّ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم عَلَى قَبْرَيْنِ فَقَالَ: ﴿إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ مِنْ كَبِيرٍ، ثُمَّ قَالَ: بَلَى، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَسْعَى بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ. قَالَ: ثُمَّ أَخَذَ عُودًا رَطِبًا، فَكَسَرَهُ بِاثْنَتَيْنِ، ثُمَّ غَرَزَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى قَبْرٍ، ثُمَّ قَالَ: لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا﴾.[1] فهذا الحديث فيه إثبات العذاب على بعض المعاصي.

فهذه نصوص مختلفة من القرآن والسنة تثبت نعيم وعذاب القبر، والله المأمول أن يرحمنا في قبورنا.

من أقوال العلماء:

✓ قال ابن أبي العز: «قد تواترت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلاً، وسؤال الملكين، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك، والإيمان به، ولا نتكلم في كيفيته، إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته، لكونه لا عهد له به في هذه الدار، والشرع لا يأتي بما يحيله المعقول، ولكنه قد يأتي بما تحار فيه العقول. فإن عود الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا، بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا».[2]

✓ قال النووي: «حاصل أحاديث الباب استحباب التعوذ بين التشهد والتسليم من هذه الأمور، وفيه إثبات عذاب القبر وفتنته، وهو مذهب أهل الحق خلافاً للمعتزلة».[3]

✓ وقال أبو بكر ابن المجاهد: «أجمع أهل السنة أن عذاب القبر حق، وأن الناس يفتنون في قبورهم بعد أن يحيوا فيها، ويسألوا فيها، ويُثبّت الله مَن أحب تثبيته منهم».[4]

✓ قال ابن عبد البر: «أهل السنة والجماعة مصدقون بفتنة القبر وعذاب القبر؛ لتوافر الأخبار بذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم».[5]

---

1 . **صحيح مسلم**

2 . **شرح الطحاوية**. ج 2 ص 213، مؤسسة الرسالة، ط 3/ 1440-2019

3 . **شرح مسلم**. ج 5 ص 118، مؤسسة قرطبة، ط 2/ 1414-1994. قلت: المعتزلة فرقة من فرق المتكلمين خالفت أهل السنة في الكثير من المسائل.

4 . **شرح صحيح البخاري**. ابن بطال، ج 3 ص 358، مكتبة الرشد، السعودية، ط 2/ 1423-2003

5 . **الاستذكار**. ج 7 ص 115، دار قتيبة، بيروت، ط 1/ 1414-1993

✓ وقال ابن تيمية: «أما أحاديث عذاب القبر ومسألة منكر ونكير فكثيرة متواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم».[1]

فهذه الأقوال ــوهناك عشرات غيرهاــ مجمعة على وجود الإجماع بين أهل العلم المقتدى بهم على نعيم القبر وعذابه، اللهم إلا بعض المبتدعة قديماً وحديثاً ممن أنكره ذلك، وهؤلاء لا عبرة بأقوالهم.

1 . **مجموعة الفتاوى**. ج 4 ص 175، دار ابن حزم، ط 4/ 1432-2011

خاتمة

فليكن هذا آخر ما أردت تدوينه في هذه الرسالة المختصرة حول هذا الموضوع.
وهذه إجابتي عن سؤال البرزخ، عليها -إن شاء الله- أحيا، وعليها -إن شاء الله- أموت، وبها -إن شاء الله- أجيب في قبري، وعليها -إن شاء الله- أُبعث يوم القيامة. والله تعالى أعلى وأعلم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وبارك وترحم، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته.